
45
حروف
الهيئة العامة لقصور الثقافة
رواية
نلعب أفلام
هدى حسين

نلعب أفلام

رواية

هدى حسين



سلسلة
حروف
تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

• نلعب أفلام
• هدى حسين
• الطبعة الأولى:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2014م
• تصميم الغلاف:
د. خالد سرور
• مراجعة لغوية: أحمد النناوى
• الإعداد الفنى: وحدة التجهيزات
• رقم الإيداع: ٢٣٢٥٠/ ٢٠١٤
• الترقيم الدولى: 978-977-718-979-8
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16 شارع أمين سامي - قصر العيني
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)
• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

45

تعنى بنشر الأعمال الإبداعية لمبدعى مصر المتحققين

الأراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأي المؤلف وتوجهه في المقام الأول.

نلعب أفلام

ما الدنيا إلا مولد كبير

ما حدّش عارف صاحبه

وبرضك بيتفذلكوا

ناس تقول حاضر

وناس تقول غايب

ما حدش أبدًا قادر

يقول ما اعرفشّ!

الفصل الأول

المـؤرخ

(1)

ربما لأننى لم أمثل أى دور، كان علىَّ فى النهاية أن أرتدى شارب المؤرخ ولحيته البيضاء، صامتًا ، وأدخل حجرتى دون انتباه لأفواه الأسرة تنفتح وتنغلق على تعبيرات بين الحنو والشفقة والفضول والعقاب. الوحيد الذى يعود من تلقاء نفسه هو الوحيد الذى يمكنه أن يكتب، وأن يتوخى الموضوعية قدر الإمكان. أن يفتح عينيه على الأحداث ويغلقهما على وجوه أصدقائه التى ذابت وتلاشت تدريجيًا حتى تحللت وتحولت إلى وجوه أخرى ، دون أن ينفعل أو يحاكم.

لحية المؤرخ وشاربه لا يجب أن يختلطا على مصمم الأزياء بباروكة القاضى البوكليت.

لم يكن يجب أيضًا أن نلعب هذه اللعبة. لكنها ليست مسئوليتنا، ليست من اختراعنا، كانت موجودة ، مطروحة فى كل مكان. أن نمثل، كان ذلك بديهيًا ومتوقعًا ، رغم أن الفكرة طرأت علينا فجأة. ولتوخى الموضوعية ، الفكرة طرأت على عقل غارب فجأة. كانت نيته حسنة.

لكننى لم أوافق. لا لأننى "عايش فى دور الحكيم " كما قال غارب مندفعاً مأخوذاً بجلال الطبيعة حولنا ومنجذباً للعبة. فى رأيي أنه لم يكن منجذباً لهذه اللعبة بالتحديد ، بل كان منجذباً للعب. ولم تكن هذه اللعبة إلا أول ما طرأ على رأسه. لذلك اعتبرها اكتشافاً نابعاً من أعماق الذات.

ولم يسعفنى لسانى الذى كفه انفعال غارب لأن أقول له إن هذه اللعبة ، ولأنها أول ما طرأ على رأسك فجأة ليست تخصك ، إنها أول نجدة طرأت على الذهن. والنجدة عادة ما تأتى أثناء التفتيش فيما نعرفه: فى القديم. فيما ليس يخصنا بالضرورة ، لكنه مطروح تحت النظر لدرجة تجعلنا نألفه ولا نعود بذلك نلحظ وجوده لكنه يكون أول ما تقع عليه أعيننا عندما نبحث عن أى شىء.

ويتحول معنى " أى شىء " هنا ، إلى " أى شىء مجلوب من الخارج ، مصدر إلينا بكثافة " . . . شىء ممتع بالضرورة ، لكن المتعة لا تعنى أنه شىء من عندنا . . .

حاولت بينما لا ألعب معهم أن أبلور الفكرة ، أو حتى أن أفكر فيما يخصنا ولا نعرفه، لكننى كنت أعود بلا إجابة ، يمتصنى دور المتفرج على أفعالهم. دور لم أحدده .. لكن لعبة التمثيل ورفضى الاشتراك فيها لم يترك لى إلا أن أكون متفرجاً. إنه خطأ اللعبة وليس خطأى. أو ربما تكون تلك الجملة هى أول نجدة طرأت على ذهنى. فكرة موجودة مسبقاً ومطروحة لحماية الذات بإلقاء اللوم

دائماً على الآخر. على أى ما هو ليس " أنا " التى علىَّ أن أحميها. ولماذا أحميها ؟ هل أنا فى موقع أدنى ، أضعف ؟ لماذا الافتراض الدائم أن كل ما هو ليس أنا عدو لى وعلى أن أحمى نفسى منه، وأن أقصيه وأرفضه ؟

غارب أيضاً كان يقول شيئاً شبيهاً مدافعاً عن اللعبة بينما آقنعه بتركها. كان يتساءل هل لأنها ليست جديدة أرفضها ؟ لم لا نستمتع بوقتنا ونخفف قليلاً من توتر البنات ؟ اعتبره عمل إنسانى يا أخى ..

لكنه لم يكن يلحظ أنه بينما يقبل اللعبة يرفضنى ، أنا ، صديقه ، لستُ شيئاً عاماً مطروحاً فى كل مكان. أنا أخصه أكثر من اللعبة. يرفضنى ويقبلها. هكذا يكتسب وباؤها أرضاً جديدة ينطرح فيها. وأكسب أنا كل هذا التفرج على أصدقائى يتواطئون فى اللعب..وأنتقل معهم من مكان إلى مكان كمتاع تجمدت الرغبة فى الاستفادة منه والرغبة فى التخلص منه معاً .. سيان ..

غارب ، أول من أسقطته اللعبة. لم يعد لى صديق : كان الوحيد الذى أقيم معه جدلاً..بموته ، حكم على أن أنفصل تماماً ، أن أصبح متفرجاً فعلاً. كانت هذه هى طريقته الأخيرة ليقنعنى. ضربة أفنى فيها حياته. كان مخلصاً جداً لأفكاره.

.. لكن دعنى أخبرك بشىء يا غارب. لو أن لأحد مثل إخلاصك هذا لشىء لما احتاج الناس للتمثيل ، ولو حتى كلعبة يتسلى بها

أصدقاء ليخففوا من توترهم. لكنك كنت مخطئاً يا أخى. كل هذا الإخلاص، وإخلاصك أنت يا أخى، لم تكن جديرة به هذه اللعبة.

ثم إن التمثيل لم يبدأ لحظة ما طرأت على رأسك الفكرة. بدأ قبل ذلك. عندما قررنا نحن الثلاثة أن نعاكس ثلاث بنات يخرجن من المدرسة. كل واحد منا اختار لنفسه واحدة. أعرف أن جسم عزة هو الذى أغرى سلامة. وأنت اخترت فردوس. ربما أعجبك فيها أنها بنت بلد. لم تقل أبداً لماذا اخترتها. وبقيت على اختيارك بالرغم من كل ما فعلته فردوس. وأنا أخذت من تبقت. كانت سلوى. رغم أننى أحببت عزة. أعرف أنك كنت تحس ذلك. وأعرف أننى لم أفعل شيئاً من أجلها.

ليتك معى الآن يا غارب. تجذب مقعدك إلى مكتبى. ترشف كوب الكاكاو باللبن بنفس المتعة والتذوق الذى تكشفه ملامح وجهك. ليتك ترن جرس الباب. تفتحه لك أمى أو أختى الصغيرة. لأنك حنون جداً وتعرف أن تعاملهم أفضل منى. تعرف أن تقبلهم دون تفكير وتحبهم كما هم. أو كأنهم غير موجودين أصلاً. أن تطرق باب غرفتى مفعماً بالصخب: إزيك يا وَحش! " تقول وتلكزنى. تمشط شعرك كأنك ترافولتا الذى نحبه، ثم تسحب كرسيك وتنظر ببراءة إلى أوراقى وتندفع غير مبالٍ: " اسكت أما حصلت لى حتة دين حادثة النهار ده! وأنا جاى بالميكروباس اكتشفت إنى ما عاييش فلوس. عملت حمش وتخنت صوتى وبدأت أسأل

بعجرفة، إيه ما حدش هايلم الأجرة ولا إيه ؟ اندفعت بنت ملتزمة أوى وتنقط وناولتنى أجرتها والحمد لله كانت فاتحة خير. "

- " إيه ؟ خرجت معاها ؟ "

- " لو كنت عاوز أخرج معاها ما حدش كان هايمنعنى ! بس أنا قلت ألم بقيت الأجرة وانزل قبل ما السواق يطلبها منى ، خد. اشتريت علبة سجاير. أنت عشرة وأنا عشرة. مش مهم أوى الواد سلامة ده غنى يا خويا. يبقى يستلف من أمه ! ".

(2)

السور الأسود العالى .. أطرافه المعدنية المسننة تبدو كأرواح مشدودة إلى سماء الظهيرة الحارقة. أنا وسلامة بعد انتهاء اليوم الدراسى. يعزم على بسيجارة مارلبورو حمراء من العلبة التى سرقها من خرطوشة أبيه التى يضعها فى الثلاجة. عندما يضع سلامة العلبة فى جيب قميصه الأبيض يشير غارب إلى سلامة ويقول : " تلاجة تانية ، ما فيش فرق! ثم يطلب منه سيجارة ببراءة من لم يقل شيئاً لتوه. مرح .. مشحون بالطاقة لبداية اليوم الدراسى ولانتهائه. فى الطابور المدرسى:

- " مرحب يا شباب ! "

لكن سلامة الذى أهدانى سيجارة لكى أبقى معه لأمر مهم سيتفضل عليك بواحدة :

" خد. أنت مش أكثر من شحات سجاير. "

- " هات. وانت يدوب مخزن سجاير. ولع ولع. خلينا نحرق الفران المفرومة! "

عندئذ كانت مدرسة البنات الملاصقة لنا تفتح أبوبها للخروج.

سلامة يرينى الفتاة التى يريد أن "يصيع معاها اليومين دول" .

كانت تخرج من المدرسة كل يوم ويكون هناك شاب فى انتظارها وسرعان ما يختفيان.

قال سلامة : "ده مش ممكن يكون أخوها. دى مش نظرة واحدة لاخوها أبداً. أنا اعرف اكتر منك.

وهذا صحيح. فأنا لم أرتبط بفتاة من قبل بسبب نحولتى الزائدة. سلامة نحيل أيضاً ولكن ليس إلى هذه الدرجة. ثم إنه وسيم ويعرف أن يخطط:

- " دى حلاوتها لما تكون البنت مرتبطة ، ولأول مرة فى حياتها زى ما أنا شايف، أكيد هاتنتهى العلاقة أول ما ترفض إنه يبوسها. أكيد هايقطمها ويسيبها علشان ينتقم لكرامته. يقول لها مثلاً .. " إنت باردة " .. أو " أنت ما بتحبينيش زى ما بحبك " .. البنت بتحب لأول مرة ، يعنى بتحب أوى. وهايسيبها ، يعنى هاتتهز أوى. حبة حنية منى هاتشبط فى. ثقتها فنفسها ها ترجع لها عن طريقى ، يعنى عمرها ما هاتفكر تسيبنى. هاتكون عاوزة أى علاقة، المهم إنها ما تفشلش زى اللى قبلها. ولو اتمنعت أقول لها إنها لسة بتحب الأولانى. إنى هاسيبها. مش هاتستحمل! هاتعمل أى حاجة علشان ترضينى. وأنا رضايا غالى. غالى أوى.. هاتحاول تثبت لى إنها مش باردة زى ما قال صاحبها. وتثبت لنفسها إنها

ممكن تنجح فى علاقة. وكل ما تتمنع أهددها إنى هاسيبها. وكل ما أهدد هاتتنازل .. لغاية ما تتعود بقى.. ودى ياابنى فايدة إنك تكون الراجل التانى. لو كنت الأول هاتتمنع عليك. ولو كنت التالت هاتنتقم من التانى فيك."

- " وها تعرف منين يا حلو إنها سابته ؟ " سأل غارب سلامة متأففاً.

-"وانت إيش فهمك يا لوح" قال سلامة ".

ثم مال على وهمس فى أذنى كأنما ينصحنى كتلميذ : " واحد بيجيلها كل يوم لمدة تلات شهور. لو ما جاش يبقى سابها وأنا وراها" .

رماد سجائرنا نحن الثلاثة كان يسقط فى بركة واحدة مملوءة بماء المطر.

عزة تخرج من باب المدرسة. تتلفت حولها. ينشرح وجهها وعيناها لرؤية الشاب الذى ينتظرها واقفاً فى الجهة الأخرى. أمامه مقعد من الرخام. يسند ظهره إلى السور الأخضر الموازى للنيل. تندفع عزة - التى لم نكن نعرف اسمها بعد — إليه فيصدمها الشارع بآلات تنبهه وسياراته المارقة بلا مبالاة. تحجم عزة كعصفور مذعور من المشى على الأرض. ثم تغامر بالعبور. تظهر على الجهة الأخرى وهى تسلم على حبيبها ويختفيان.

عزة تخرج من باب المدرسة. تتلفت حولها. هو ينتظر على

الجهة الأخرى شارداً يستند إلى شجرة ضخمة على يساره. تفاجئه عزة فيختفيان.

تخرج من باب المدرسة. تتلفت حولها. هو ظهره لها ووجهه للنيل. تقف إلى جواره قليلاً تسحب حقيبتها ويمشيان.

تخرج من باب المدرسة. تتلفت حولها. دقائق ثم يأتى حبيبها. تتهلل. يمشيان.

تخرج من باب المدرسة. تتلفت حولها. تنتظر فى الجهة الأخرى. يعاكسها شباب من مدرستنا. تهرب. يرحل سلامة. أنتظر فترة أطول مع غارب. حبيبها لا يأتى. أخفينا ذلك عن سلامة.

تخرج من باب المدرسة. تتلفت حولها. لا يأتى.

تخرج من باب المدرسة. تتلفت حولها. لا يأتى.

تخرج من باب المدرسة بصحبة صديقتين لها. تتلفت حولها. لا..

يلقى سلامة سيجارته : " Now " ويندفع نحوهن.

يشدنى غارب لنمنعه عن عزة، من أجلى. لحقنا به قبل أن يبدأ الكلام واندفع غارب "ينقذ الموقف" : احنا رايحين المولد تيجو معانا ؟ ".

كانت عزة لا تزال شاردة. وفردوس غارقة فى الضحك. أما سلوى فكانت أجرأهم فى تلك اللحظة.. لقد تكلمت ! :

- " ياى ! نفسى أغوح ! " متجهة إلى سلامة الأنيق.

فالتفتت إليها فردوس بازدراء :

- ياى ؟ من إمتى ياختى لسانك اتعوج ؟"

قال سلامة : - " وانت يا .. "

: - " عزة . "

: — " وانت يا عزة ، رأيك إيه ؟ "

: - " مش عارفة .. "

: - " تعالى يا شيخة وروقى أعصابك. أدينا هانتفرج و .. "

وانطلقا فى حديث منفرد ، أمامنا أنا وسلوى التى تحدثت إلىَّ دون أن أنتبه لها.

- " أنا اسمى سلوى.

أنا عمرى ما رحت موالد.

لو عمرك ما رحت ممكن أحكيلك عنهم.

بابى حكالى عنهم.

أصله كان بيشتغل هناك !

آه والله! فانتاستيك ! عارف أبو الغيط ؟

بس دلوقت بيقدم عروضه فى الأوتيلات.

إنت ما بتعرفش تتكلم ؟

طيب اسمك إيه ؟ .. " .

(3)

غارب : " ماكنتش عاوزه يستفرد بيها. فكرت فى مكان نكون كلنا فيه معاها. ماكنتش أعرف إن حكاية المولد دى هاتوصلنا لكل ده. تعال. لازم نعمل حاجة. بدل ما نسيبه يلعب بيها، نخليه يلعب برضه ! "

فردوس: - " إيه كورة ؟ معاناش. "

سلوى : . " نتسابق "

فردوس : : " ولما يجرى بيها بعيد نبقى عملنا إيه ؟ "

غارب : - نلعب أفلام. "

فردوس : - " لعبة جماعية مش ممكن يفلفص منها. "

غارب : - " ومافيهاش مجهود عضلى ، يعنى مش مرهقة للبنات. إيه رأيك يا أستاذ ؟ "

أنا : - " لأ. سطحية أوى. ومش جديدة "

غارب : - " الحق على إنى بحاول أنقذ عزة علشانك ! والله أنت ما تستاهل ! بطل تعيش فى دور الحكيم وانقذها انت لو تقدر.

خلاص، عشان لعبة مش جديدة نرفضها ؟ " أخذ نفساً عميقاً ثم همس فى أذنى " اعتبره عمل إنسانى يا أخى. نطمن على عزة ونخفف شوية من توتر البنات. " أسرعت فردوس للحاق بعزة وسلامة.

امتنعت عن الاشتراك. استثمرت سلوى الوضع لصالحها. قررت ليتعادل الميزان بدونى، أن تكون هى قاضى اللعبة. وتحسب نقاط المتسابقين. تطرد من تشاء وتبقى على من تشاء. واستمتعت بذلك حقاً.

(4)

فى البداية كان الأمر يبدو عادياً ، لأن من طبيعة المولد أن يكون صاخباً وأن يدعو الناس للتخبط والانصهار بين المجموع. وهكذا كان غارب ، إلى جوارنا ثم يقفز فجأة ليشاهد ذكراً أو راقصة أو مراجيح. ثم يعود إلينا. كان يصدر أصواتاً صاخبة كأنه يعوى. وبدلاً من أن يعيد للحياة مرحها. كنت أشعر أنه ينبؤنا بموت قريب.

كان يختفى فجأة خلف الذكر. وكانت سلوى وسلامة يسخران. ثم يعود ليحكى لنا مغامرته. ويختفى مرة أخرى خلف الراقصة فيحييه سلامة : " هو ده الكلام ". فتنظر له فردوس بازدراء ثم تلتفت إلى عزة وتعود بنظرتها باحثة عن غارب مرة أخرى. يعود إلينا غارب فيمتعنا بحكاياته عما حدث أمامنا ورأيناه بأعيننا ولم يكن ممتعاً بهذا القدر. كنا ننبهر به وكانت عزة تبتسم فيقطع سلامة الحديث ساخراً محقراً من أمر غارب الذى يهرب مرة أخرى ليشارك الأطفال دوامة المراجيح. نراه يعانقهم ويرفعهم فى

الهواء فيصرخون فرحاً. وأخذت الأرجوحة تعلو وتهبط حتى لم نعد نره فى صعودها وهبوطها وقلنا إنه سيعود ليحكى لنا. لم يهتم سلامة كثيراً وأخذ عزة ليفرجها على بقية المولد. واحتضنهما الزحام. وجلست أنا مع فردوس وسلوى فى خيمة معدة للشاى. إلى أن جاء الليل وعاد إلينا سلامة بعزة ، لكن غارب لم يعد. كلما مرت ساعة من الليل كانت عزة تردد : " أنا خايفة " وكانت سلوى تتكور وتنكمش فى الركن وكانت فردوس تروح وتجيء كلبؤة تخاف على صغارها من دخول الليل. "إيه ؟ هانسكت ؟ هانسيبه يروح ؟ طيب راح فين ؟ كان المفروض يرجع بدرى. هو عارف إن المفروض نرجع بدرى. مش ممكن يكون تاه. ممكن يكون تاه ؟ شحطين معانا ماحدش قادر يهز طوله ويروح يدور عليه ؟ أنا هاروح. ؟

قالت سلوى : - " أنتي اتجننتى ! الساعة كام دلوقت ؟ عاوزة حد يخطفك إن شاء الله ؟ ولما أهلك يسألونا نقول لهم إيه ؟ اتخطفت ؟ "

انفجرت عزة فى البكاء ، فأخذها سلامة بين ذراعيه وأخذ يكرر لها ألا تخاف. التفتت إليهم فردوس : - "ده وقت أحضان ! ".

(5)

إظلام تام فى الداخل والخارج. فقط لمبة جاز يتوتر شعاعها الخافت عند التقائه بأطراف وجوهنا فيحيلنا أشباحاً تعيش فى كهف بعيد جداً عن مناطق الحياة.

كانت شعلة اللمبة تضىء بعض ملامح وجوهنا ، وكان علينا ليتعرف كل منا على الآخر أن يستكمل من ذاكرته ملامح الوجه المقابل.

سلوى : " كان لازم آجى معاكو ؟ "

فردوس : مش أنت اللى قلتى أوه ياى عاوزة أغوح ؟ "

سلوى : بتتريئى على ؟ ما أنت ما لقيتش أب يحكمك. "

فردوس : " بابا الله يرحمه أشرف من أبوكى ألف مرة. تلاقيكى بتتمنى لابوكى الموت عشان ما حدش يلمك. "

عزة : - " حرام عليكو كفاية ! "

فردوس : " عزة معاكى فلوس نروح إحنا " ؟

عزة : " لأ . . . (تنظر لسلوى) "

سلوى : - " طمعانين فىَّ انت وهى ؟ ماعاييش. بدل ما تبصيلى اسألى الواد الغنى اللى حوطتى عليه. "

(عزة تنظر إلى سلامة)

سلامة : - " مش صرفتهم على فسحتك ؟ عاوزة منى إيه تانى؟ أبيع هدومى ؟ "

يسود الصمت المكان. تقطعه عزة بنحيبها المتواصل. تتذبذب اللمبة ويقترب جازها على الانتهاء. عندما كانت عيوننا تتلاقى سرعان ما كنا نتجه بها إلى الأرض ، أو إلى فتحة الخيمة. بينما بقيت فردوس تروح وتجئ.

لم يتجه إلى أحد بالسؤال عن نقود. ربما كان ذلك أفضل لأننى لم أكن أملك منها شيئًا تقريباً. لكننى شعرت بعزلة وإهمال لوجودى ، فأعزيت ذلك إلى أننى كنت بكاملى مغروساً فى الظل. وربما لم يستطع أحد أن يرانى.

ظهر شبح عند فتحة الخيمة. اندفعت إليه فردوس، فسقطت لمبة الجاز ، وصرخت سلوى صرخة قصيرة حادة ثم تكورت أكثر. كان غارب.

قالت فردوس : - " ماهو لسة بدرى ! "

وقبل أن تكمل جملتها كان قد سقط على الأرض مغشياً عليه. كانت ملابسه متسخة ، وقميصه ممزق عند الصدر والكتف وعلى وجهه جروح كأنها لطشات مطواة.

(6)

لما تأخر الوقت ، نامت سلوى فى الخيمة. حاولت أن أغمض عينى. كانت عزة لا تزال تبكى وتهمهم بكلام غير مسموع. وسلامة الذى أصابه الملل يكرر لها ألا تخاف. أما فردوس فقد سهرت بقية الليل على تضميد جراح غارب.

أثناء النوم همست سلوى فى أذنى أنها تخاف أيضاً. لكننا فيما بعد ، عندما كنا نجلس على الربوة الخضراء ، كانت تأبى أن تعترف.

فى الصباح كان غارب على ما يرام. لم نجد فردوس. قال غارب أنها ستعود بعد قليل: " تفتكروا البنات ممكن ترجع لأهلها وش الفجر ؟ وحتى لو قدرت ، مافيش فلوس كفاية لرجوعهم كلهم. فردوس راحت تجيب فلوس من ماما. وكل واحدة تقول بقى إنها باتت عند التانية .. إنها كانت فى المستشفى .. أى حاجة. المهم يرجعوا. فردوس ما تعرفش حاجة. أنا بعتها بورقة مقفولة."

عادت فردوس بعلبة بها مال ومصاغ وورقة مكتوب عليها " راجل يابنى ".

خرج البنات لاستقبال الفجر.

قالت عزة :

-أنا مش ممكن أروح كده. أنا خايفة .. "

زعق سلامة فى وجهها وهو يشعل سيجارة :

- " هو إيه اللى حصل يعنى ! "

- " مانتاش عارف إيه اللى حصل ! "

- " طيب ما تقولى كده سمعينا. "

- تنظر عزة إلى الأرض ثم تنهار فى البكاء.

- نظرت فردوس إلى سلامة ثم أخذت عزة فى حضنها :

- " أنا مش ممكن أسيب عزة فى الظروف دى. هابعت لماما إنى فى رحلة أو أى حاجة. "

قالت سلوى :

- " بما إننا معانا فلوس دلوقت ، ما تيجو نسافر ؟ "

فردوس :

- " وماما ، وأختى مين تحمل مسؤليتهم ؟ "

سلوى :

- بطلى خوف بقى ! فيه حاجة اسمها حرية. وبعدين انت قلتى إنك هاتفضلى مع عزة. وعزة مش مروحة.

تنظر فردوس لعزة فتنهار عزة فى البكاء :

- " ماقدرش ! ماقدرش! "

(7)

عاد إلى ذاكرتى كلام سلوى بالأمس " أنا خايفة . لو رجعت البيت أبويا هايضربنى بالصرم ومش بعيد يقتلنى "أهلها صعايدة" مهما طلعت أو نزلت هايفهموا الليلة دى غلط، كانت تضغط جمسها بى كأنى جزء من الأمر الواقع " تعرف ، اللى حصل ده جه على هوايا. من زمان نفسى أسيب البيت " التصقت بى أكثر بينما تكمل بصوت يتلون فى غنج " بس كنت هاجيب فلوس منين ؟ أبيع نفسى يعنى " أنا بنت شريفة. قلت يمكن ربنا يحط فى سكتى واحد يطلع ابن حلال ويتجوزنى. الصدفة دى بتاعة ربنا مش كده " ؟. أعطيتها ظهرى وقلت " تصبحى على خير " وشعرت بها تتململ فى الفراش. تمسح بيدها على كتفى. تسكت. تعيد الكرة.. تتقلب وتتكور فى نفسها ثم تنفجر فى البكاء. بينما كنت أفكر أن غارب لم يحك لنا بعد عودته عما حدث له. ولم تزل هذه اللحظات من حياته غامضة بالنسبة لنا جميعاً. لكنه بعد ذلك كان أكثر مبادرة. حتى أنها صارت هواية عنده أن يدخل نفسه فى المواقف المهلكة.

قال لى ذات مساء : "ماتخفش علىَّ ، أنا بسبع ترواح ، تحب أثبت لك ؟" ثم قفز فى الشلال واختفى فى لمح البصر. ولم يظهر بعد ذلك أبداً.

(8)
قواعد اللعبة

فيلم :

تأخذ اليد اليمنى شكلاً أسطوانياً فى مواجهة العين ، واليد الأخرى مغلقة قرب الأذن تتحرك على شكل دائرة.

فيلم عربى :

نفس حركة الفيلم. ثم رسم دائرة فوق الرأس بالسبابة والإبهام من كل يد.

مسرحية :

اليدان تستقيمان أمام الوجه ثم تنفتحان كأنها ستارة مسرح تنفتح.

عدد كلمات الفيلم أو المسرحية :

عدد الأصابع المفرودة قبل البدء فى التمثيل.

ألف ولام :

تتقاطع أفقياً سبابة اليد اليمنى مع سبابة وإبهام اليد اليسرى.

حرف عطف :

بسط اليد اليسرى أفقياً وتمسح اليد اليمنى عليها كأنها تلاطفها.

حرف جر :

اليد اليمنى مغلقة تحاكى سحب شىء تجاه جسد الممثل.

فى :

اليد اليمنى مضمومة فى شكل أسطوانى تدخلها اليد اليسرى مضمومة أيضاً فى تأكيد الدخول.

من :

مثل فى مع التأكيد على الخروج.

إلى :

اليد اليمنى مفرودة رأسياً تتحرك لأسفل ولأعلى.

فوق :

اليد اليمنى فوق اليسرى ولا تلامسها.

على :

اليد اليمنى فوق اليسرى ، وتلامسها.

(9)

أمرت سلوى ، كقاض للعبة ، أن يتكون فريق من عزة وغارب والآخر من فردوس وسلامة. واستطاعت هكذا أن تقيم سلطاتها على غارب الذى فكر أن يفصل فريق البنات عن الأولاد حرصاً على عزة ، واستطاعت أيضاً أن تفرق بين كل رجل والفتاة التى اختارها لترضى وضعها الحالى وقد اعتبرت قرارى أن أنسحب من اللعبة تعبير عن انفصالى عنها ، عجرفتى، تعالىَّ الزائد ..

همست فى أذن عزة باسم الفيلم الذى أملاه عليها سلامة لتمثله لغارب.

عزة : - " ... "

غارب : - " فيلم. عربى ؟ "

عزة : - " ... "

غارب : - " عربى. "

عزة : - " ... "

غارب : - " من كلمة واحدة. فيها ألف ولام؟. "

عزة : - " ... "

غارب : - " ألف ولام. "

عزة : - " ... " (تتلفت حواليها. برقت فكرة: علمت على سبابتها اليمنى بخط أفقى. رسمت بكفيها بطناً كبيرة فوق بطنها.)

سلامة ساخراً : " إيه ، بطنك مالها ؟ إيه حامل ؟ عندك مغص؟ أنت حامل طيب ؟ عيل ؟ ابنك ؟ سرتك ؟ مالها ؟

وعزة تحرك رأسها بالنفى مع كل كلمة منه. داخت عزة ، وسار جسمها يترنح بكامله يميناً ويساراً معلناً النفى. شرحت مقصدها من تقسيم سبابتها عقلات : دى معناها. تلات عقلات تبقى إتلات الكلمة. إذا كانت تلتينها " بطن " تبق " الباطنية ".

وهكذا اشتركت عزة فى صميم اللعبة : أضافت إلى دستورها قانوناً.

الفصل الثاني

الحـــب

(1)

فندق لا يطل على البحر " رخيص. قليل الزوار. لن يشتبه فينا أحد " : خطط سلامة. حجرة للبنات وأخرى للبنين .. وحجرة سرية.. ابتسم سلامة فى خجل عندما افتضح أمرها وقال إنه يستقبل فيها عزة.

كان يستقبل فيها البنات بالتوالى. لم يكن يبيت معنا إلا لو صادفتهن الدورة جميعاً فى الوقت نفسه ، وهذا غير محتمل طبعاً. كان سلامة لا يزال نبيلاً لا يدخل لدرجة أن يسبب لهن مشاكل: " البنت اللى اتنازلت للدرجة دى وهى مش فاهمة حاجة ، تقدر تربطها جنبك. لسبب بسيط هو إنها مش قادرة تفكر. إما قلقانة لإن الدورة لسه ماجاتش فتفضل لازقة فيك علشان لو طلعت حامل تتجوزها ، أو فرحانة لإن الدورة جت فتجرى على حضنك لأنك إنسان نبيل وماغشتهاش. وفى كل الحالات ، إنت الكسبان. "

وتوطدت معرفتى بغارب بحكم وجودنا وجهاً لوجه "لأسباب خارجة على إرادتنا ". فى البداية كان المساء سجناً بين رجل يتنقل

بين محطات التليفزيون رافعاً زرار الصوت، وآخر مصاب بأرق دائم ويحتاج للسكينة حتى ينام. فيناكفني غارب:

- " يا راجل عيش واتفرج " !
- " ممكن تطفى النور ؟ "
- " لأ ! "
- " مش كفاية التليفزيون والع ! "
- " باخاف من الضلمة يا أخى ! باخاف من العفاريت ! "

وينزع غارب ملاءة السرير ويلبسها كخيمة " همم .. همم .. " ثم يرفعها " إيه رأيك أنفع ؟ " أحكم الغطاء حولى متقززاً. أتقلب كثيراً دون أن أنام. عندما يتملكنى الملل أخرج إلى الشرفة وأحسده على شخيره العالى. أبتسم أحياناً لصغر عقله وسذاجة خوفه. لكن أحياناً ، عندما كانت تمر على لفحة هواء بارد فجأة ، يرتعد جسمى كله ويرتفع شعر رأسى خوفاً. أحسده على اطمئنانه للنوم. ويصبح شخيره المزعج هذا الشىء الوحيد الذى يؤنس أرقى.

يستيقظ فيحكي لى أحلامه بالتفاصيل المملة. يفرض نفسه علىَّ دون أدنى اعتبار لحالتى النفسية. لدرجة صار صوته وحده يستفزنى بغض النظر عما يقول. لكننى ما إن أفلت منه إلى خلوتى، إلا ويطغى حضوره فى ذهنى على تأملاتى الخاصة :

كيف استطاع أن يحفظ كل هذه التفاصيل وهو نائم ؟!

إنه لا يهدأ أبداً لا ليلاً ولا نهاراً ، مستيقظاً أو نائماً. هل من الممكن أن أسمى هذه الحالة أرقاً من نوع ما ؟

عندما دخلت عزة الخيمة المنصوبة أمام البحر ، كان الغروب قد حل ، وكنت أجلس على عتباته ترفعنى موجاته وتنزلنى بهدوء. أتى إلىَّ غارب بينما ذهبت فردوس إلى داخل الخيمة. كانت فرصة سلامة وسلوى أن ينفردا ببعضهما. خطر ببالى أن سلوى لابد الآن أصابها الزهو لأنها استطاعت أن تقتنص سلامة ابن الناس من عزة العبيطة. ربما لا يكون مجرد " ابن " ناس فى نظرها ولكن أيضاً " ابن حلال "..

- " مالك ؟ " قال غارب.

جلس إلى جوارى. أخذ حفنة من الرمل المبلول وفركها فى يده، ثم تركها تتسرب ببطء من بين أصابعه.

- " مافيش. " قلت مختصراً.

-كانت عيناه المثبتتان على تربكاننى ، واختفاء اندفاعه الذى اعتدته منه. عندما أدرت رأسى بعيداً عن نظرته ، استطعت أن أبدأ:

" حاسس أن ده مش مكانى. لازم أرجع. "

" وتسيبنى لوحدى ؟ "

... غارب يتحدث عن الوحدة !...

قلت ضاحكاً : " أديكو بتلعبوا مع بعض. مش أنت صاحب اللعبة؟ "

خرجت عنه ابتسامة مخزولة.

قلت : " أنا حاسس إنى ماليش حد لا هنا ولا هناك."

- "وعزة؟"

هالته حدة نظرتى عندما نطق باسمها. لقد فوجئت مثله بانزعاجى. لكنه سرعان ما استرجع دفء ملامحه كمحارب يستعيد سلاحه. جلس فى مواجهتى داخلاً فى البحر وأمسك بذراعى :

- "أنت مش وحيد. أنا معاك."

ضحكت للحل السهل. وطرأ على أن أكسر هذا الدور المفتعل الذى يقوم به تجاهى. هو؟ من يكون لكى يعلو على ويحتوينى؟

- "مش يمكن ما كنش وحيد، وكل الحكاية إنى مختلف عنكم".

- "كلنا مختلفين عن بعض. ولوحدنا بشكل ما."

ها هى جملته تصفعنى من جديد. ويساونى بالجميع. لم أجبه. عندما شعر أن حديثى عن الاختلاف لم يكن يحتاج إلى إجابة، وأنه كان قد حكم على الجميع بالانسحاق أمامى، تجمدت ملامحه واقتبس طريقتى فى السخرية اللامبالية :

- "انت مش وحيد. انت فريد!"

ثم استعاد ملامحه واستكمل بصوت دافئ متفهم.

- "ولا تحب أندهلك "يا أستاذ"؟

ثم دخل فى الماء.

(2)

لا تكون الوحدة إلا عندما يكون هناك بشر. ويكون هناك ما يعوق الانتماء إليهم : إما لأنهم لا يستحقون ، أو لأنهم يرفضون (وفى هذه الحالة كان السببان متوفرين) ، أو لأنهم يستحقون ويقبلون ، لكنهم أمر واقع ، وأنت تريد أن تختار. وفى هذه الحالة أيضاً أنت لا تختار. إنهم بشر عرفتهم بالصدفة ، وقدر لك أن تعاشرهم دون غيرهم. الوحدة موجودة دائماً إذًا ، لأن كل التقاء ببشر لا يكون إلا من تدبير الصدفة ، الصدفة وحدها.

بعد رحيل غارب شعرت بها. عرفتها أول ما أتت ، الوحدة. وأنها مؤلمة. لم أكن أرغب فى أن أبوح بذلك لأحد. وانعزلت عنهم قبل أن يتحولوا فى رأسى إلى مجرد أدوات للخروج من الوحدة: عكاز، طوق نجاة، .. إلخ.. فساعتها لن أعاملهم كبشر أراكم داخلى شخصية كل منهم وأعامله على معرفة بها. سيصحبون سواء. وسيكون على كشخص وحيد أن أترك وحدتى وأنصهر فى هذا السواء.

عندما كان غارب موجوداً ، كان هناك من أمارس وحدتى

معه. كانت وحدة مشبعة. أو ربما كان غارب من أحقق فى وجوده اختلافى. ربما كان على حق " أنت مش وحيد، انت فريد " هل كان يمازحنى فعلا. عندما كان حاضراً ، كنت أشعر أننى في وحدة، ولا أحتاج للانتماء إلى أحد. وهنا يكمن التفرد: الوحدة المرغوبة لذاتها وليست رد فعل لإحباط أو نبذ. الوحدة غير المصحوبة بصراع مع نقيضها. ربما كان لابد لى يا غارب أن أمر من التفرد إلى الوحدة لكى أدرك معنى التفرد. ربما كان هذا أيضاً واحدًا من الدروس التى علمتها لى دون أن أدرى. أنت كنت تدرى. عيناك كان فيهما يقين.

(2)
يا دنيا يا غرامى

فردوس:

- أنا ما بعرفش أحب.

سلوى :

-- زمان وأنا صغيرة بيتنا كان كل يوم فيه حفلة. بيرة ورقص. . . كان عندى سبع سنين. بابا قال لى دوقى البيرة دى حلوة. طلعت مرة أوى. رجعت. وما باقيتش أثق فى أى كلمة يقولها بابا.

عزة:

- ماما وبابا ما تجوزوش عن حب. ماما اتربت على الحلال والحرام. بابا لما عاكسها ندهت له العسكرى. قال فى نفسه دى عياشة واتجوزها. أكيد ماما ما قدرتش تنام معاه بسهولة. مسكينة يا ماما.

فردوس:

- بابا كان يتحب. من صغرى أخدنى معاه الشغل. كان شريك

فى مصنع. كل العمال يحبونه. لكن شركاءه كانوا متغاظين منه غيظ ! كان عاوزنى أخالفه فى الشغل. كان بيدخن سجاير سوبر.

عزة:

- لما بافكر فى ماما باحس إنها أكيد أخدت صدمة. أصل مش معقول كل اللى اتربت إنه حرام، فجأة كدة وبورقة ممكن تنقطع أو تبوش بقى حلال. وواجب كمان. هى عملته تأدية واجب فعلا. عمرها ما حست بحاجة.

سلوى:

ماما بتقول إن أنا جيت وجبت الرزق معايا ، عشان أبويا ساب الموالد. طول عمرى رقيقة. كل الناس قالت كده. سلامة بقى، بيقول إنى شقية، وعيونى بتلمع زى القطط.

فردوس:

- ماما باعت شبكتها عشان تدخلنا المدرسة. كان لازم ابقى معاها دلوقت.

عزة:

- امبارح كان معايا. ضربنى وبهدلنى. متوحش. حد معاه سجاير.

فردوس:

- تنفع سوبر؟

عزة:

- (تشعل سيجارة وتتبادل النظرات مع فردوس) زمان وانا صغيرة، كان عندى عصافير. كان لونها أبيض. أو يمكن الذاكرة بتشيل الماضى فى الأبيض والأسود... أما الحاضر والمستقبل. كفاية عليهم أوى يبقو رمادى. لكن كان فيه وردة. وردة حمرة. الحاجة الوحيدة اللى شايلاها بلونها الطبيعى.

سلوى:

- كل شىء زمان كان أبيض وأسود. صح وغلط. وما فيش أى حاجة لسه ما قيموهاش يسيبوهالنا نشوف احنا إذا كانت صح ولا غلط.

فردوس:

- انا كما كان عندى عصافير. بس عمرى ما عرفت مين الراجل فيهم ومين الست. كان شىء مزعج جدا وشغلنى كتير. ساعات كان بيتهيألى إن الاتنين من جنس واحد علشان كدة بيتناقرو طول النهار. العصافير فى التليفزيون كانت بتبوس بعض. وكنت زعلانة أوى: هو عشان العصفورتين بتوعى عصفورتين ما بيبوسوش بعض؟ طيب مانا بابوس ماما.

سلوى:

- فاكرين عبد السلام النابلسى لما كان اسمه غراب وكان مربى عصافير فى البيت. كل لما كنت اشوف الفيلم ده كنت أتمنى أكون الست اللى كانت ساكنة قصاده.

فردوس:

- أيوة أول ما شفت غارب فكرنى بيه. يمكن لأن حروف الاسمين متشابهة؟ تفتكرو هو ده التناسخ؟ أنا شخصياً كان نفسى أكون عصفورة، لغاية ما شفتهم بيتخانقو. بعد قده ما جبتش عصافير تانى.

عزة:

- كانت العصافير هى اللى بتجيلى. مرة جت يمامة وعششت على شباك أودتى. كان جوزها قبل ما يدجل عليها يغنى ويتقدم خطوة خطوة. مش المسروع ده؟ ... فرحت أوى لما خلفو كنت بابص على العيال من ورا الإزاز. وهم كمان كانوا بيبصولى... عادى... من غير خوف. لما كبروا فضلت اليمامة تيجى على العش. أد إيه كانت وحيدة. كانت كل شوية تحوم حوالين العش، تقف، تنضف ريشها وتغنى. اليمام عارف يعنى إيه ذاكرة. يعنى إيه الحياة مالهاش معنى من غير شهور مارس وابريل ومايو، ومستعدين يدفعوا بقيت عمرهم فى كل سنة فى انتظار التلاث شهور دول... لو كنت يمامة، كنت أكيد عمرى ما هاخرج من العش.

فردوس:

- وانا لو كنت ذكر يمام ياستى أو عدك انى ما ادخلش عليكى غير بالراحة خالص. وارحمك من المسروع ده! هههههههههه...

كانت الشمس حمراء تميل إلى البنفسجية. وكان البحر قد تحول إلى الأزرق الغامق. لم يكن غارب قد عاد بعد. ظهر القلق على فردوس. وظهر ظل غارب آتيا من البحر. وقفنا، بعيون مفتوحة. خطاه بطيئة..نقطة سوداء بين الأزرق والبنفسجى تقترب وتستطيل. غابت الشمس والتحمت السماء بالأرض متفقتين على اللون الأسود. اختفى غارب مرة أخرى، فى اللون.

كانت عيناه واسعتين وبللورتين كمن وجد السلام وطفت روحه. لكن فردوس ما زالت قلقة بشأنه. كان يحكى لنا بهدوء كيف فتح عينيه فى الماء ورأى اسماكا غريبة يمكنها أن تتحدث معه عن طريق ألوانها المشعة. ألوان تتغير كل لحظة لكنها دائما مشعة. حدثنا عن قانون الثابت والمتغير. مثله لنا بالتنفس لم يكن ليمكن للإنسان أن عمره الذى يجرى باستمرار فى طريق رأسى، دون التذبذب المستمر بين الشهيق والزفير، قال إنه كاد يلامس الحد الفاصل بين السماء والبحر لولا أن الشمس ابتلعت نظرته باحمرار فصار لا يستطيع أن . . .

- "وها يفيدنا بإيه ده كله ؟" قاطعته فردوس ودخلت الخيمة.

كنا جمعيا محلقين حول غارب كبرو الحديد أمام مركز الجاذبية.

فكرت أن دور غارب الحقيقى هو أن يكون هو راوى هذه القصة ولذلك فقد مسخ طعمها وتخبطت شخصياتها بعد وفاته.

(3)

لم تكن خيمتنا تظهر فى الظلام ،لأننا لم نكن قد أضأنا لمبة الجاز بعد. قالت فردوس.

- " الفلوس خلصت. فاضل الذهب " .

- " ومش بعيد اهلكم بلغوا عن غيابكم والبوليس ورانا" قال سلامة.

تنهدت فردوس وأشلعت اللمبة.

اندفع غارب: " خايف من البوليس ومش خايف على البنات من الجوع "

مسحهن سلامة بنظرته ثم : " لا ما تخافش البنات هاتجيب فلوس كويس أوى. أمال أنا كنت بامّرنهم على إيه ؟ "

ارتبكت نظرات سلوى وفردوس وانكمشتا فى الركن. كانت عزة كامشة منذ بداية الحوار، تحرك إصبعها فى الرمل يحدث زوبعة فى الرمل ويسقط. قالت بصوت هامس:

- " نبيع الدهب " .

- ومين اللى هايتطوع لده ؟ " أجاب سلامة محاولا أن يكسر دفتها ويحيل البنات إلى غرضه الذى لم يخطر على بالنا ابدا: نشغلهم... ؟ لم يخبرنا بهذه الخطة.

فررت من ثرثرتهم إلى البحر. رأيت الخيمة كصوبة تشتعل من الداخل.

- " ما تروح يا خويا انت تبيعه " قال غارب لسلامة. وقبل أن يكمل جملته كانت البنات كلها تفاجئه:

" لأ "

كان هدير البحر يطغى أحيانا على أصواتهم، وأحياناً هواجسى الخاصة.

وصلنى صوت غارب يؤنب فردوس : " الحق علىَّ عشان عاوز أحافظ عليكى " .

صوت فردوس : " على الأقل سلامة راجل واقعى " .

صوت سلامة: " يا أخى لو جبان ما فيش داعى تدارى جبنك فى كلمة بخاف عليكى ! " وتملا دماغنا بحواديت لا راحت ولا جت! "

كانت أشباحهم تقف وتقعد ، سوداء خلف قماش الخيمة. ظلال تتذبذب فى حركتها العصبية الراقصة. وجسمان لا يتحركان فى قطبى الخيمة ككفتى ميزان.

(4)

أتذكر المولد فأدون أننى لا أحب الزحام والحر والصخب. تبدو لى هذه الأشياء كأنها دوامة، أو عناصر كابوس مزعج وذلك لأننى أحب الحياة: أن يعمل عقلى، أن ترى حواسى " ما وراء " ما يمكنها أن تراه تسمعه أو تلمسه. لكن كل الذين تنتابهم هيستيريا الرغبة فى الخلود يقعون فى هذه الدوامة وهذا الكابوس. إنهم يعتقدون أن التفاعل مع الحياة يتلخص فى الالتحام المباشر بها. التحاما يجعلهم أحياء ما دامت الحياة موجودة. وبما أن الموت حقيقة يرونها تحدث كل يوم ولا تحتاج دليلا أوضح من ذلك لإثباتها، يتمسكون بفكرة كالبعث أو كالتناسخ. وكلمة " ما وراء " لا ترتبط عندهم إلا بالموت ، ما وراء الموت: بعث أو تناسخ. فالحقيقة التى يراوغونها هى أن الموت هو ما وراء كل شىء تراه الحواس. يعشقون البحر والشجر والسماء بألوانها الجذابة. يعشقون الجبال والصحارى والشمس الحارقة التى تبخر أرواحهم بدفئها. يحبون الناس والزحام والضجيج. يحبون الحفلات والموالد والأفراح ، والمغالاة

فى الضحك والبكاء. يحبون كل شىء كأنهم سيفقدونه لحظة أن يروه. ولذلك فهم يعتبرون الحياة حاضرا مستمراً ، لأن الدخول فى فكرة الماضى والحاضر والمستقبل ستجعلهم يعترفون أن للزمن دورة يمكنها أن تنتهى.

ولأنهم لا يرغبون فى التسليم بالموت فى أية صورة من صوره، يحاولون أن يروا الجانب المشرق فقط فى أى شىء أو شخص أو موضوع. وهذا بديهى. بما أن العكوف على استخدام الحواس وحدها دون العقل عادة ما يوقع المرء فى ذلك الفخ الجمالى الذى تصنعه له. فيلبس كل ما يراه ثوب التدليل على سعادته وشبقه ما زال تجاه الحياة. وهكذا يدخلون دائرة الفناء. فهم ينظرون إلى الطبيعة بإجلال دون معرفة أى شى حقيقى عنها ويدورون فى فلكها دوران العابد المتصوف حول إله حتى الفناء. ويتحول الإله إلى هاجس يراودهم كل لحظة حتى لا يعود إلى وجود إذا لم يقدسوا الجمال. أو يغرقوا فى الصخب حتى يتحولوا إلى مكان يقيم عليه الضجيج مسرحا.

وإذا أحبوا لا يعرفون لماذا أحبوا، ولا يريدون أن يعرفوا ، يحبون الناس لأنهم بشر مثلهم يتشاركون معهم محنة أن يموتوا دون تمييز بين إنسان وآخر كأنهم قطيع ماشية، أو كأنهم غير موجودين أصلا: مكان يفرغون فيه احتياجاتهم لأن يحبوا ، لأن يعطوا، وتبقى عطيتهم بعد موتهم. ليتناسخوا فيها ويصير الخلود.

لكن هذا لا يعنى أنهم يحبون الحياة. ما يحبونه هو الفناء فيها. بما أن حياتهم هذه لا تدور إلا حول محور واحد هو الموت. الخوف منه/ الحقد عليه، إنكاره، الالتصاق بكل ما هو محكوم عليه بنفس المصير، ربما يكونون كثرة فى مواجهته.. التمسك بحيوية الروح التى سيداهما الموت، وحيوية الجسد.

لكنهم فى الحقيقة يحبون الموت أيضاً. ويرون لحظة حدوثه لحظة خلاص من كل هذا التذبذب. وإلا ، فكيف نفسر حبهم الشديد لحرارة الشمس التى تبخر أرواحهم والنوم عميقا فى صمت على النجيلة الخضراء؟

يبدو أن هؤلاء البشر هم الأبطال المأساويون لهذا العصر. لكن ذلك لا يدعو للإشفاق عليهم. على العكس. فهم متأخرون لدرجة لا يدركون معها أن عصر المسرحيات التراجيدية قد انتهى منذ قرون. وأن الحياة لا يمكن أن تبدأ ما دام الموت عدوا أو مخلصا. فالموت ببساطة ليس شخصًا يمكنه أن يتخذ موقفا عدوانيا كان أو متعاطفا. إنه شيء يحدث بمحض الصدفة ، أو ربما يختار الإنسان حدوثه محاولا الانتحار. ولا يستطيع الموت ساعتها أن يقبل أو يرفضُ هو نفسه ليس له أية علاقة بالموضوع.

لكن غارب كان يكابر. طرأت على رأسه فكرة فجأة، وهى أنه معشوق الحياة. إن عارضته، لم لا يعتبر هذا تمنع المحبين،بل شقاوة منها. وكمحب مخلص، كان يقبل من الحياة كل ما تلقيه

عليه عرضا فى الطريق حتى العراقيل والمحن والصدمات، دائما يكابر ويحبها أكثر. وفجأة أيضاً فكر أن كل ما هو سيء فى الحياة لا يصدر عنها. إنها جميلة وحبيبة، لكن الموت الذى يجثم على أنفاسها يجعلها أحيانا عصبية مضغوطة وساخطة. وبما أنه الحبيب المخلص المتفهم فعليه أن يخلص الحياة من عدوها وعدوه أيضاً. قرر غارب أن يتخذ الموت عدوا وأن يذهب ليصارعه حتى يقتله وتخلص الحياة له بعد ذلك مرتاحة نائمة مطمئنة على صدره القوى.

(5)

عادت فردوس تلهث : اقلعوا اقلعوا وبدأت بخلع ملابسها.

عانقها غارب ليخفى جسمها عنا ، فبدأت تفتح أزرار قميصه ويبدو أنها هذه المرة هى التى ذهبت وتعود إلينا بالحكايات بعد أن طالنى القلق عليها:

- " ما فيش محل كان راضى ياخده. بيقولوا مسروق. واحد وافق بس بسعر رخيص أوى. وحذرنى لو ما وافقتش هايبلغ عنى. اشتريت هدوم جديدة عشان نخفى أثرنا خالص".

احتمينا جميعا بالظلام وبدأنا نخلع ملابسنا تحت وطأة ذعر فردوس الذى انتقل إلينا جميعا. أخذت فردوس ولاعة سلامة وأشعلت فى الزى المدرسى. رأينا بعضنا عرايا فى اللهب. فهالنا صمت. ثم ضحكت سلوى ضحكة متغنجة ، تبعتها فردوس بأخرى خفيفة مستهترة. وضحكت عزة أيضاً. كأنها بينما تخلع ملابسها تخلع مع الملابس روحها القديمة التى بليت وطال الانتظار عليها. ضحكنا جميعا. غنينا وتراقصنا. تصادمت أجسادنا صدفة

أحيانا وعمدا أحيانا، بخجل أو بشبق، لكنها بلا حرج. وكان هذا هو اكتشافنا العظيم: نحن جميعا نحب بعضنا بعضا. لا تهم من تراقص من المهم أنه واحد منا وليست غريبا. لا يهم من التى تراقصنى، المهم أنها واحدة منهن وليس غيرهن. نحن معا، والآخرون هم الجحيم، لأنهم ببساطة يبلغون عنا، يريدون أن يفرقونا عن بعضنا.. يريدون أن يسحبونا إلى حظائرهم. أن نكون مثاليين فى البيت والمدرسة. إننا نعرف بعضنا أكثر مما يعرفوننا. ومن حقنا أن نختار.

كانت الملابس التى أتت بها فردوس قد بدأت تتطاير فى الهواء، وكنا نلاحقها. نطير خلفها. نقع فوق بعضنا ونضحك. نلاحق بعضنا أكثر من ملاحقة الملابس.

(6)

عزة: - " باحسد الناس اللى ماعندهمش تطلع، اللى مش عاوزين يعرفوا من الدنيا إلا اللى يخص هدفهم وبس ، الهدف " الوحيد " اللى ما يعرفوش غيره. الناس اللى بتمشى مشوار حياتها زى الحمير ".

فردوس: " لل بافكر فى حياتى باحس انى زي اللى دلق ميه فى الشارع، لمجرد إن عنده حبة زيادة ممكن لو فضلوا يغرقوه. وفى نفس الوقت باحس إن الميه دى هى خزينى الوحيد من الميه الحلوة لو دلقته هاموت من العطش... أعمل ايه بحياتى " ؟

سلوى: - " عادة بيكون عند الواحد حاجة نفسه يحققها. إنه يكون مهندس أو صحفى أو حتى مدير... علمونا كده فى المدارس: لازم نكون " حاجة " كبيرة فى المستقبل. ولغاية ما ييجى المستقبل، نتمرن، ونحاول. خمسة وثلاثين تلميذة بيحاولو يطلعوا الأولى. واللى سبق أكل النبأ...

فردوس: " وكنا نغش عشان نطلع الأولى. لازم نبتكر حيل جديدة نخدع بيها المراقبين".

عزة: " أو حتى نغريهم ".

سلوى : " وعلى المبتدئات الانسحاب فورا، وإلا هايبقوا همه كبش الفدا، الغش مش حرام؛ الحرام هو إن المفتش يفقسك".

سلامة: - " والأولى طبعا ممكن تخمينها، بنت المدير أو أكبر مساهم فى تبرعات المدرسة. . . إلخ "

سلوى: " والثانية هاتوصل بمجهودها. هاتتفق مع شلتها يذاكر كل وحد حته. هى، هاتذاكر كله ومش هاتغششهم عشان ال إيه " ضميرها أنبها " والتالتة، هى اللى غششت أصحابها بس معلومات غلط وبكده تبقى كنستهم من طريقها، لكنها أقل خبرة من اللى قبلها، لأنها ضيعت من وقتها وغششتهم، كمان عرضت نفسها لاكتشاف المفتش.

عزة: - " وعلى الكل إنهم يسأفلهم ويفخرو بيهم وقت تسليم الشهادات.

سلوى: - " بقية الأوائل من اللى بيمشو أمورهم. واللى تغلب به العب به. ودى مهارات يحسدو عليها.

أنا: - " أحيانا بافكر فى البناء الرأسى اللى بيبنوه، هو مش أكثر من عامود لازم تنضفر معاه عواميد تانية علشان تتقام حيطة، وده اللى انا باعمله. لازم يكون فيه قوة دفع أولية: كل الأهداف بحيرات تصب فى مجرى تكوينى. وهاتفضل فى نظرى مالهاش قيمة لغاية ما تخدم انتباهى المستمر واختبارى الدائم

للعلاقة بين مدى إيمانى بمبادئ ومدى جدواها فى العالم الخارجى. بعد كده تتساوى الأهداف.

فردوس: " دول فاكرين محطات الحياة أهداف، وكل واحد واقف عند محطته مش راضى يتتعتع ولا يشوف الدنيا. يتشعبو. يعنى كل واحد يبقى شعب بحاله. يتداخل فى اللى بيكلمه، يستوعب محطات الآخرين.

فى الخيمة، نمنا مرهقين. تكومنا فى أحد أركانها ككتلة لحم واحدة تتقلب وتتداخل أذرعها وأرجلها الأربع وعشرون. كانت سلوى تردد " لازم نسافر بكرة. لازم نسافر بكرة. . . . " حتى نمنا جميعا على صوتها.

(7)

استيقظت ليلا، وجدت فردوس فوق غارب الذى يحضنها، ودموع بلا صوت تخرج من عينيها إلى رقبته رغم نومهما. ووجدت سلوى وسلامة يتلويان معا دون صخب. عيونها مغمضة أيضاً ، وعليها تعبيرات. نظرت إلى جوارى، كانت عزة على بعد سنتيمترات تنظر إلىّ وتبتسم. عندما نظرت إليها خبأت وجهها فى الرمل.

قبل الفجر استيقظنا على الرمال تدخل أنوفنا. فتحنا عيوننا على عاصفة رملية تقتلع الخيمة من فوقنا. حاولنا أن نثبتها جميعا من الداخل ثم من الخارج لكن بلا جدوى. لم نكن نرى سوى بياضًا كاملاً. اختفى البحر، واختفينا. لا نسمع أصواتنا. الرمل يدخل أفواهنا فنغلقها بأيدينا. كانت فردوس تنادينا صارخة حتى انجرح صوتها. وعندما كانت تلمح شبح واحد منا تحتضنه دون تمييز ملامحه ومعه تبحث عن آخر حتى تجمعنا فى حضنها.

نامت على الرمل. ركعنا حولها ودسسنا رؤوسنا جميعا فى حجرها. طوت رأسها فوق رؤوسنا وأحاطتنا بذراعيها. نادت أسماءنا

وأجبناها إلا غارب. شعرت بدموعنا تبلل فخذيها فشددت علينا:

- "أكيد هايرجع. هى عادته ولا هايشتريها".

شعرنا بالبلل على رؤوسنا فعانقناها بالأذرع الثماني التى نملكها.

بدأت ثورة الرمل تهدأ. وظهر شبح غارب واقفاً على مقربة منا.

ابتسمت فردوس:

- "حمداً لله على السلامة".

- "حاولت أنقذ الخيمة... ما عرفتش".

هدهدته فردوس فى حجرها. قالت عزة:

"أنا بحبك أوى يا دوسة...".

وانضمت إليهم. انضممنا جميعا بالتوالى إلى إيقاع الهدهدة.

(8)

هزات القطار بطيئة ممتدة تزداد سرعة وعنفا. تتحول البيوت والحقول إلى علامات على تاريخ قديم يستعرض نفسه بصورة بانورامية أمام العيون التى تشرد عبر النافذة، ولا تتساءل إلا عن المستقبل الوشيك. ماذا سيحدث؟.. العيون يغطيها تعبير صاف وحزين. شيء كالحنين. كالأسى.. تتلاقى بغتة ثم تعود سريعا إلى النافذة.

تنظر إلىَّ عزة وتبتسم. وعندما ألمحها تخفى عينيها فى خجل. كان هذا مؤلماً. حاولت أن أنشغل عنها بالنافذة والتفكير فى سبب الألم. كان سلامة يشاغل سلوى. فكرت أنه ربما يكون رهاناً بين سلوى وعزة. من منهما يستطيع أن يبعد أى منا – أنا وسلوى – عن الآخر. لو نجحت عزة سأتحول إلى مادة لسخريتهم أثناء الرحلة، ليس لاختلاف منهجي فى الرأى، ولكن لمجرد تمضية الوقت. وعند باب الوصول تعود الحياة كما كانت بين عزة وسلامة. وكان هذا هو ما يسبب ألما. لكن سلامة عندما شعر أن عزة تنشغل عنه بى رفع صوته محدثاً سلوى:

- " كمان الحياة مش ناقصة الناس اللى عاملة نفسها بتفهم. الحكاية مش محتاجة فلسفة. الحياة إيه غير ضحك ولعب... وحب ولا إيه يا زيزى ".

- "آه.. " أجابت عزة. تحت تأثير تنويم مغناطيسى ماوذهبت إليه.

لكنه لا ينومهن. إنهن يأتين إليه بمحض إرادتهن. أو ربما يكون للجنس عليهن تأثير المغناطيس. لكن هل هذا هو الحب؟ وهل ما أشعر به تجاه عزة هو الحب ؟ ما أنا متأكد منه هو أننى أشفق عليها كثيرا ، أشعر برغبة فى تحمل مسئوليتها، أكره سلامة لأنه غواها ولا أستطع أن أصدق أنها تريده هو فعلا. لكن لم أرفض زواجهما، ولم أقبله أيضاً.

فكرت أننى ربما لا أحب عزة، وأن كل ما يجذبنى لها هو رغبتى فى أن أعيش فى دور عبد الحليم الأبدى : المحب الذى يعانى ولا يتزحزح عن موقفه مهما حدث. لكننى لست ما زوخيا إلى هذه الدرجة. فكرت فى الطرف الآخر ربما يجذبنى فى عزة أنها بريئة الملامح وشديدة الرقة مثل ذبيدة ثروت. لكن كل هذا راح وانتهى ما إن استدارت عزة إلى سلامة كالمرآة تعكس ما يدور فى قلب من تحدثه.

ربما يكون ما أشعر به هو احتياج لأن أحب، مثلما تشعر البنات برغبة فى التفتح على عالم الأنوثة. سلامة يغوى البنات ويلبى رغبتهن. إنهن لا يحبونه. مجرد احتياج. والاحتياج من شخص يولد نزعة للإغواء عند الآخر. والعكس صحيح. ربما يكون احتياجى

لأن أحب هو الذى دفع عند عزة غريزة ما تدعو إلى إغوائى. هذا أيضاً يسبب ألما. لكننى عندما نظرت إلى عزة، تحول الألم من أن يكون بسببها إلى أن يكون من أجلها. من أجل ابتسامتها الباهتة الشاردة كمن يقول لنفسه: " عاوزنا نرجع زى زمان ؟ قول للزمان ارجع يا زمان ! " كأن حنيناً ينتابها إلى علاقة حب لم تدخلها، وكان عليها أن تصادفها فى الماضى. علاقة فارغ فى الذاكرة مكانها. فراغ يختل بسببه توازن الحاضر المتراص فوقه. . . الأشياء التى لا تحدث فى وقتها، يمكن لغيابها أن يغير مجرى حياة كاملة.

"أديش كان فيه ناس، عالمفرق تنظر ناس، وتشتى الدنيا ويحلو الشمسية... وأنا بأيام الصحو، ما حدا نطرنى."

لم لا أحاول على الأقل أن أصدق أن عزة تحبنى، تحبنى فى هذه اللحظة على الأقل..

" على الأقل"

" فى هذه اللحظة"

جمل تعيد إلى الألم مرة أخرى.

سلامة أزاح غارب من جوار عزة ليجلس مكانه. أخذها فى حضنه فسلمت رأسها إلى عناقه وأغمضت عينيها. . . كأنها لا تريد أن تراه ! أن ترانا ! . . .

يبدو أن الحب مرتبط فعلا بالاحتياج والغواية. باليأس وبالحنين. لكن ليست هناك علاقة عكسية لها به، فهى لا ترتبط به

بالضرورة ويمكنها أن تنمو بعيدا عنه. يبدو لى أن الألم هو الشىء الوحيد الذى يصير واقعا ملموسا عند التفكير فى الحب.

ثم إنه ليس أمامى دليل على أنى أحبها. فقط بعض تلميحات غارب، الذى لم يستند فيه إلى أى سبب مقنع بالنسبة لى.

ساد الصمت المكان. ثم عادت رجرجات القطار تأخذ أرواحنا بعيدا.

فردوس: " يا ترى يا ماما عاملة إيه من غيرى ؟"

غارب: " أكيد محتاجالك. زى ماما ما هى محتاجالى.. وزى مانا محتاجلك دلوقت.. أوى". ابتسمت لغارب ودخلت فى حضنه.

نظرت إلى سلوى: " ما فاضلش غيرنا بقى.. إيه رأيك"

ضحكت وقلت لها: " ماشى يا ست لولو."

سلوى: " لولو ! ياه .. دانت اتقدمت أوى !"

لم لا ؟ ربما لا يكمن الحب فينا كغريزة تنتظر أن يجد المرء نصفه الآخر حتى يتعرف عليها.. ربما كان الحب صعباً إلى هذا الحد. وأن علىّ اكتسابه بطريقة ما.. ربما تستطيع سلوى بخبرتها أن تعلمنى. لماذا لم أنتبه إليها أبدا رغم أن القدر دائما ما يضعها فى طريقى؟ فى الحب إذا شىء قدرى.

فى حضنى النحيل قالت سلوى:

- تعرف ؟ أنا نفسى أسافر فى كل مكان فى العالم".

- ما عاناش فلوس لده كله.

- "أسافر لوحدى"

- "إنت بتحبى الوحدة"؟

- "لأ".

- "تبقى أنانية".

- رفعت رأسها إلى:

- "ده كلام واحد يقوله يا ربى لواحدة فى حضنه!"

بالرغم من تكرار مشهد الأحضان فى اللحظة نفسها — عزة وسلامة ، فردوس وغارب، سلوى وأنا — لكننى كنت أرى أن هناك شيئا لا يتكرر. وأن ما يحتضنه كل اثنين بينهما يختلف عما يحتضنه الآخرون.

في الحب إذًا أيضا شيء نسبى.

الفصل الثالث

حديقة الرَّب

(1)

إظلام تام. ضوء خفيف يكشف عن سماء زرقاء تحت سحب تجرى. يزداد لون السماء اقترابا إلى اللبنى كلما تقدم الصوت فى الكلام. الصوت منخفض يبدأ هادئاً ثم يتلون ويتذبذب متصاعدا إلى اللهاث بنبرات بارقة من وقت لآخر.

(صوت غارب)

- أغمضوا عيونكم، وليمسك كل منكم بيد الآخر، ويحلم. أزيحو عنكم ملامح وجوهكم وأعماركم. صور أفراد علائلاتكم، الأماكن التى اعتدتوا ارتيادها ، واعلموا جيدا أن الذاكرة لن تظل إلى الأبد حبيسة الماضى المحدود لكل واحد منكم.

(صمت. نهر جار من منظور طائر بين غابات شديدة الخضرة والتشابك بحيث لا ترى أرضها من أعلى).

- تمددوا كالماء. وتسربوا فى العشب. تلاشوا كالبخار. وليتكثف كل منكم على هوى سحابته ليسقط مرة أخرى ، مطرا ، حيث يشاء.

(صور أنبياء تتلاحق فى حالة رعى الأغنام، لا يتعدى زمن

صورة منها عشر ثوان. من جهة أخرى يبدو تلاحق الصور كأنه عملية فرز كوتشينة. يطيرها الهواء فتبقى السماء والصوت).

-- أنتم محظوظون يا أبنائى. ستعيشون الحياة مرتين، مرة بالروح وأخرى بالجسد.

(يظهر نفق طويل تعبره أشباح سابحة أو طائرة. النفق ضيق سقفه قصير تضطر المار للانحناء. بنى تقطر منه بعض قطرات السمغ السائلة. تتلاحق صور الشباب والبنات ووجوهم تحاول أن تنفى عن ملامحها العمر والنوع. تطول الشعور وتبرز الأثمال من الجسم كأنها قشور جلده القديم وتكسوه عوضا عن الملابس. تبدو الوجوه دائخة. وتظهر فى الصورة من الجهة اليسرى يدان تتحركان حركات الحواة، المفروض أنهما يدا غارب).

- أغمضوا عيونكم، ستمر أرواحكم، فى لحظة خارج الزمن البشرى، بما سيحدث لعمر بأكمله. للأرواح زمنها أيضاً. عندما يخمد الجسد ويستسلم للذة الكسل، تنشط الروح. ليست أحلام اليقظة أو المنام أحلاما، إنها ما تقيس به الروح حياتها. ولأنها تحسب عمرها باللحظات لا بالسنين ، يجرى كل شىء سريعا، ومكثفا كجريان شريط فيديو. قد تنسون أحداثا مما ستمرون به، لكن لا تفزعوا، ستذكرونها فى أوقاتها لو ركزتم بصركم الداخلى عليها قليلا. وقد تلهون عن تذكرها ويحل التشتت محل التركيز فتهلكوا.

(فى بؤرة الصورة يد معلنة عن سبابتها فى حالة وعيد وإنذار، يد عملاقة وتحتها فى الخلفية تجلس الأجساد الأخرى وتحركها الريح كيفما تشاء).

- لن تستطيعوا شيئا لو لم تستطيعوا السيطرة الآن على مسار أرواحكم.

(يدا غارب ووجهه بملامح المنتصرين).

- أطلقوها الآن.

(غارب كاملا. من منظور نملة. تظهر واضحة ومقرفة تشققات قدميه).

- ولينظر كل واحد منكم إلى قدره الذى قضى أمره، والذى سوف يحيكه له، رويدا رويدا ، لحم جسمه وحركته.

(تظهر صورة كل من الشباب بالتوالى كأنها تنظر للكاميرا منتظرة أن تصور الفيش والتشبيه).

- لا تندهشوا لو قال أحدكم لنفسه إذا دخل مكانًا لأول مرة:

" يخيل إلى أننى رأيت هذا المكان مسبقا" .

أو " أعتقد أننى قضيت كهولتى هنا"

أو " ليس ذكاء منى أن أتصرف بهذه الخبرة فى محنة كهذه، إنه ما تمليه علىّ ذاكرة ما، كأنى مررت بهذا الموقف من قبل، وتصرفت نفس التصرف وقد أملاه على رجل عجوز شارف على الموت " .

(وجه غارب ويده بحركة وملامح المستخف الذى يرثى ويتعاطف فى الوقت نفسه بحال هؤلاء الخليقة).

- كونوا إخوة يا أبنائى..

فليس هناك زمن تعيشون ملابساته، ولا مرحلة عمرية بعينها تمرون بأزماتها، ولا مكان أيضاً إلا ما تطرأ صورته فجأة على أذهانكم، فاصعدوا اصعدوا. ربما نعود حوات وآدميين نرتكن إلى شجرة الجنة.

(وجه غارب يغرق فى التأسى كأنه يبدأ رغما عنه فى تمثيل شخصية حكيمة).

- احلموا ، دون جزع من أن تحلموا.

وتذكروا أن ما سيحدث ، قد حدث.

قد حدث.

(2)

لم يكن الأمر سهلاً. لم نجد سوى طريق طويل وضيق كسرداب. اضطررنا لأن نقطعه كاملا بلا هدف، لم يكن أمامنا غيره. وكان غارب ينظر إلينا النظرة تلو الأخرى نظرة متفحصة أحيانا، غائرة، مستريبة، أو فقط نظرة أبوية مشفقة علينا من طول الطريق وفراغ معدة الصغار اليتامى (كان يرانا يتامى كحوات وآدميين!) يتقدمنا بعصا طويلة مخروطية يتكئ عليها كالأنبياء.

كنت أشعر أن رغبتى فى الضحك تزداد كلما اقتربنا من نهاية الطريق، ولأكون موضوعيا، رغبتى فى السخرية، والتشفى لحظة أن وصلنا إلى "الجنة" التى كان يحدثنا عنها:

" يا أبنائى فكروا فى كل ما تشتهون .. ستجدونه قد حضر".

يا سلام!

كل شىء سينقلب أمره فى غمضة عين؟!

هذه الجنة التى دخلناها كان يرثى لها. مسكينة بائسة. لها أشجار جميلة! نحيلة وعقيمة، تقبض أشعة الشمس عليها من

جذورها ، لا زرع فيها ولا ماء. تراب. من أين سنأكل وكيف سنعيش؟ لا أدرى . هل صدق فعلا هذا المجذوب أن حركة أمعائنا توقفت؟ أو أن تكويننا البيولوجى والفسيولوجى قد تغير حسب مزاج حضرته وبفعل أحلامنا المزعومة؟ هل صدق أن هذه الغابة التى تشبه داعرة عجوز هى الجنة؟ ولأننا فعلا آدميون وحوات ! هل أخبره بأسمائنا ربما يفيق من لعبته الجديدة ؟ هل أخبره بعمر كل منا، عنوان بيته، عمره وفصله الدراسى ؟ و...

رفع يده إلىّ وأشاح بها بوقار. أغمض عينيه للحظة ثم فتحهما علىّ:

- قل لى يا بنى هل أمكنك أن تحلم؟

- "إيه العبط ده ما تفوق بقى ! احنا فى ورطة ، ما فيش أكل ولا شرب ، والبوليس كمان زمانه فاكر إن احنا خاطفين البنات ، و . . . "

أخذ نفسا عميقا ثم أخرجه ببطء والتفت إلىّ:

" يا فتى لا تكثر من الكلام، واعرف كيف تحدث معلمك العجوز. يشفع لك صغر سنك. هذه حماسة الشباب أراها فى عينيك. وهذا بريق التعطش إلى المعرفة. فلا تفسح للغرور مكانا فى قلبك. واعلم أنك لا تعرف كل شىء، بل لا تعرف أى شىء ما زلت لا تعرف شيئا عن طبيعتك وطبيعة الحياة من حولك. لا تكن مندفعا متعجرفا كالجاهلين. اغضض طرفك لمعلمك وتواضع يا بنى لترفع روحك وتواخى الحجب المقدسة" .

- " جرى ايه يا غارب ! "

- كفى ! . . . سأصلى من أجلك ".

لا أعرف هل كان له كل هذا التأثير على من حوله حتى أنهم التفوا حوله وأخذ يحدثهم ويندمجون معه فى الحديث الهامس الحكيم حتى سلامة ، وسلوى، كأنهما روحان حائرتان قد وجدا ضالتهما فى هذا المعلم . أنا أيضاً شعرت بالخذى بسببه، بعد أن مرت عدة أيام علينا لم يخبرنى أحد أنه سيموت جوعا أما أنا فقد كدت أفقد صوابى من آلام معدتى وتضرعها لى أن أحشوها بأى شىء. كنت أقطع فروع الأشجار بهيستيريا وأقشر لحاءها وآكل لبها الذى كان يسبب لى بعد ذلك تعبًا شديدًا فى القولون وعمليات الهضم والإخراج بصفة عامة. أما هم فكانوا ينظرون إلىّ فى شفقة بينما يوسدون لمعلمهم تلاً صغيرًا من التراب تحت أكثر الأشجار إظلالا. لكى يجلس عليها ويثير أذنى بكلماته.

" يا أبنائى . . . . . . ،

يا أبنائى. . . . . ،

يا أبنائى. . . . . . ،

وعندما يغضبه رأى أو سؤال لواحد منهم ينزع عنه أبوته:

" يا فتى . . . . ،

يا فتى . . . . ، "

وينهى زجره الوقور الهادئ له بجملة:

" تواضع يا بنى ...... تواضع "

كأنهم لن ينالوا شرف تبنيه لهم إلا إذا تملكهم شعور بالضعة والخضوع.. لكن الشجاعة لم تكن تواتينى كى أحدثه. كنت بعيدا منفصلا. ومنبوذا.

غير أنى كنت أحيانا أسترق السمع إليهم. هالتنى البداية: كنت أرى شفاههم تتحرك، أيديهم تتحرك، رؤوسهم تتحرك، كل شىء فى حالة حركة متناغمة مع حركة الأب، أو المعلم كما كانوا يسمونه أحيانا، لكننى يستعصى على سماع أصواتهم. أحيانا كانوا يمشون طويلا فى "الجنة"، يتفقدون أشجارها، وترابها، لا يبدو عليهم التعب، ولا يظهرون بمظهر الباحثين عن الطعام. كنت أتتبع آثارهم. وكلما كانوا يمضون أكثر فى أعماق الجنة، كنت أجد الأثر الذى يتقدمهم يكبر ويتعملق. حتى إذا ما التفت إلى رأيته. لم يكن يشبه غارب إلا الشبه البعيد. كان نحيلا كالزهاد، طويلا لا تصل إليه يد، تتسع الرقعة التى تحتلها قدماه من الأرض، وتغوص فيها كأنها جذور شجرة تحجرت من قسوة المكان. أما هم فلم يكونوا يشبهونه إلا فى نحولته. تدريجيا، لم تعد تظهر على ملامحهم فروق الذكر من الأنثى: كان النساء يعرفن أن شعرهن أطول.

وكانوا يجلسون احيانا فى شكل دائرة تحت شجرة، أو حول تل صغير، يصعده معلمهم، وقد آتى كل منهم بفرع شجرة متفحم من الحرارة ، يمدون الأفرع أمامهم حتى تتلامس أطرافها ويغرقون

فى صمت يزيدهم نحولة، حتى أنى تخيلت أنهم سيتحولون إلى أرواح بلا أجساد.

عندما تجسد الخيال فى رأسى هالتنى الفكرة: كيف سأتعرف عليهم لو حدث ذلك؟ ألا يكفيهم أنهم صاروا أشباحا تقريبا؟

رأيتهم فى مخيلتى يتبخرون وتصعد بقايا جلودهم وتندمج مع أشعة الشمس الحارقة حتى تنجذب إليها تماما كل قطعة فيهم، فيصعدون. تخيلت هذا التحول التدريجى بشعا: جلود تتقشر وتترك أصحابها الذين يتجهون إلى بهياكل عظيمة محشوة أمعاء ومعدات وقلوب تنبض، لها صوت المضخات العملاقة.

عندئذ أوقف المعلم صلاتهم فجأة ولمحنى من بعيد أتطلع إليهم فقربنى إليه وطلب منهم أن يتركونا وحدنا.

- " عاوز منى إيه ؟ "
- " ماذا تريد من نفسك يا بنى ؟ "
- " عاوز آكل ".
- "تزود معنا"
- " هو فيه حاجة تتآكل أصلا ! "
- " ألا تحلم بشىء آخر ؟ سلهم بماذا كانوا يحلمون "
- "أنا ما باحلمش".

يتفرسنى كأنما تأكد من إجابة لسؤال ما. حاولت أن أكسر الصمت الذى حل فجأة بيننا، فهو صديقى وزميل دراستى على أى حال:

- " أنا مش مقتنع بأوهامكو دى "

- " كنا اليوم نتعلم شيئا اصطلحنا له كلمة " حديث الصمت "

وفى هذا الدرس نستفيد من دروس التركيز السابقة فى . . . . . . "

- وأنا مالى، بأقول لك عايز آكل"

- " أى أنك مقتنع أننى أستطيع أن أوفر لك طعاما " .

- " وفره لنفسك يا خويا الأول " .

نظر إلى نظرة محبطة وإن كان يتخللها بعض العتاب المشوب بقليل من الأمل. وعاد إلى موضوع درسه من جانب آخر.

- " ألم تكن تحلم بأننا مسوخ تتبخر ؟"

- " باسلى نفسى فى الخرابة دى (أيوه تخيلت ده، بس ما حلمتش .. انت عرفت منين؟ انتو بتدرسو إيه بالضبط.

- "احضر دروسنا"

- "لأ"

- "إذا، لن تتعلم شيئا"

تركته وذهبت أتابع نزهة تلاميذه.

عندما طرأت ببالي الفكرة قلت لنفسى: لم لا؟ وكانت قد طرأت بعد مجهود شاق في التذكر، أم أن بزوغ الفكرة هو الذي مهد للتذكر؟

بهذا الخط البياني الزمني مرت رحلة الفكرة والتذكر:

أنا جعان

عايز آكل

لازم أتحمل شوية

مش قادر اتحمل أكتر من كدة

إشمعنى هم مش حاسين بالجوع؟

أنا باحسدهم

يا ترى بيعلمهم إيه العجوز الخرفان ده علشان ما يحسوش بالجوع؟

أو.. ما بيعلمهمش إيه يخليهم ما يحسوش بالجوع..

لازم أتصنت عليهم

بس أنا مش سامع حاجة!

لو ماجبليش غارب أكل دلوقت هاحرضهم عليه يقتلوه!

إنشالله آكل جثته!

لكن مين هو ده علشان أطلب منه آكل؟

هو فاكر نفسه مين؟ ربنا؟

...ربنا!...

عرفت ساعتها أنه لا مفر من أن اكون شيطانا، بل إبليس نفسه. وأنه من واجبى وإن لم يثمر ذلك عن شيء، أن أحرضهم ضده. لأن أحلامنا عادت بنا الى بداية الخلق وعلى أن أتذكرها كاملة حتى أتحمل عبئى فيها. أنت حقا يا غارب لا مثيل لك، لأن بمجرد اقتناعي بأننا في بداية الخلق الآن اضطررتنى لأن أسلم فعلا بأننا في الجنة.

هكذا بذكاء لم أعهده فيك، أدخلتني طرفا ممثلا في اللعبة.

وبدأت أتساءل حول الشخصية:

هل كان الشيطان مثلي يعرف مقدار المسئولية التي تقع على عاتقه؟

رغم أنهم جميعا متورطون في اللعبة فإن أحدًا منهم لم يع ذلك. لا أحد غيري. هل كان الشيطان مثلي أيضا ساعتها وحده المدرك لهذا الأمر؟

بدأت تنفيذ الخطة ممثلا ما ظننت أن إبليس فعله.

(3)

- أشعر أحيانا أنني شخص آخر. أنني مضطرة لأن أكون شخصا آخر. وأن أتتبع خطواته التي مشاها. بدأ يترسخ في هذا الشعور في إحدى المرات التي كنا فيها نربي أجسادنا بالمشي. عند منحدر، توقف بنا معلمنا ونظر إلى السماء ثم انحنى إلى التراب وفرك حفنة منه بين أصابعه الكريمة. كان يبدو أنه ليس ترابا عاديا. كان عبارة عن بقايا حطب احرقته النار. قال معلمنا بابتسامة راضية: "بشرا كانوا هناك قبلنا." فعرفت أنني تكرار لصورة مضت. منذ ساعتها أحاول التذكر، رغم أن معلمي منعني من ذلك. قال إننا سنتذكر كل شيء في أوانه، عندما يحين أوان التذكر.

- تحبي اقول لك اسمك كان ايه؟

- كلا، ليست هذه هي الذاكرة التي أبحث عنها. قال معلمنا إن الاسم مرتبط بالجسد الذي تسمى به، وأن الجسد مرتبط بالحياة التي يعيشها لحظة تسميته بالاسم. وأنا لا أفكر في تكرار حياة عشتها بجسدي من قلبل.

الآن نحن ما زلنا نتعلم النسيان حتى نستطيع الدخول إلى حياتنا الجديدة. يجب أن ندخل بذاكرة ناصعة البياض. ورغم أني استطعت أن أنسى اسمى القديم وصورتي القديمة، لكننى ما زلت أحاول، ولو خفية، أن أصل الى الذاكرة التي أبحث عنها، التي انا تكرار لها. معلمنا يعد أجسادنا للحياة القادمة للروح، وأنا أحاول أن أتذكر ما فات. أعرف جيدا أن الروح قد عاشت كل شيء قبل أن تتحدد بالجسد، لهذا أريد أن أرى الماضي، لأن كل شيء حدث في الماضي. ولا أرى في ذلك اى تعارض مع عقيدتنا، لكن المعلم كان يقول أنه ليس على الانسان الموجود في حاضره أن يحاول الالمام بكليات الأمور، بما أنه موجود في جسده، ضعفه المادي، فالجسد لا يستطيع تحمل كليات الروح، ولذلك علينا أن نستعد لحياة تلو أخرى، ولا ندخل في حالة الاستعداد لحياة إلا عندما نفرغ من أخرى، وإلا سينهار الجسد من جراء تذكر كل حيواته السابقة واللاحقة دفعة واحدة! وتضطر الروح إلى تركه إلى جسد آخر تكمل من خلاله دورة حياتها، أو تبقى معلقة في حيز الفكرة، تلعب بها ريح التأويلات، فتضيع.

في البداية كنت أخاف أن يغضب منى معلمي. لكنه كان ينظر إليً، ورغم ارتعادي، لم يكن يحدثنى في هذا الموضوع. كان ارتعادي ظاهر حتى لأخوتي في العلم لكن يبدو أنه لم يكن واضحا لمعلمي. بدأت أفقد الثقة فيه، لولا تذكري أن المعلم يهتم فقط بما هو كامن في الروح، ولا تشغله بالتالي ظواهر الجسد.

- وفين بقى التكرار في الكلام ده؟

- في أحد الدروس التي يلقيها علينا تمهيدا للدخول في التأمل حدثنا معلمنا عن التكرار. لم يكن ينظر إلى بعينيه لكن بقلبه، وكأنه يخصنى بشيء من دون الباقين. قال إن للبشرية أخطاء من نوع أخطاء البشر أنفسهم، ولها أفراح وأحزان وأسئلة أيضا لكن بصورة أكثر كلية. لهذا فإن عمر البشرية أطول بكثير من عمر فرد واحد منها، بل ومن عمر البشر جميعا، لأن البشرية موجودة حتى قبل أن يوجد البشر، موجودة في حيز اللامكان. وجود لم يكن قد وصل بعد إلى مرحلة التطبيق، فهل يعنى هذا انتفاء هذا الوجود الممكن؟

- وتصدقيه؟

نظرت إلىّ عزة نظرة متسامحة من عارف لجاهل مسكين. ثم غاصت بنظرتها في عيني حتى تأكدت من كوني أحببتها فعلا، دون أي دليل منطقى على ذلك، ولا أدري كيف أوصلتنى نظرتها إلى هذا اليقين.

بحبك يا عزة. قلت، فانهارت من البكاء. ثم صمتت قليلا موجهة نظرتها إلى عمق الشجر.

أنت دخلت إلى حياتي بين عمرين، وقررت لى طبيعة تكرارها. الآن أدرك اسمى الذي كان، وسيبقى هو نفسه اسمى الذي سيأتي. أنت سميتنى فأنزلتني من جديد إلى حياة الجسد.

جلست إلى جوارها وسط الشجر أحاول أن أفهم كلامها لكننى فشلت. ربما طغى على الزهو لكوني "أسميتها". بعد لحظات قالت لي بنبرة مستسلمة لأمر واقع ما، أنها جائعة وتريد أن تشاركني البحث عن طعام. عانقتها وانطلقنا. في الطريق أخبرتني أنها لم تعد بحاجة إلى الاستماع إلى درس المعلم. ولرغبة مني في أن أعرف إن كانت في حياتها القادمة ستحبنى مثلما أحبها، سألتها:

- وسلامة؟ ما يهمكيش تشوفيه؟

فانتفضت، ورددت اسمه كأنها أدركت معلومة جديدة. وعاودني أنا دون سبب مفهوم، شعوري بالوحدة، واللامبالاة ايضا.

كدت أنسى هذه اللحظة، لما تبعها من لحظات مسكرة. كانت عزة كأنما اكتشفت المكان لاول مرة. وكأنها كانت نائمة وأفاقت بغتة متعجبة لكل ما تراه. لا تعرف الكلام. بالاشارة تسأل عن اسم كل شي: السماء الملابس الورق الأخضر.. ثم تنامى المرح، فأخذت تقفز وتدور حول نفسها وحول كل شيء تريد أن تعرف اسمه. تحك يدها بالشجرة، أقول: شجرة، تردد: شجرة. وتضحك. تقبض بحفنة من التراب في يدها:

- أرض

- أرض! تردد كأنها تتذكر المفردات.

كان يصلنى صوت أقدامها وهي تدوس الأوراق الناشفة. تطير من شجرة لأخرى مكررة دورانها حولها. وكانت هناك موسيقى. وكنت سيد المكان.

أخذت أتبعها من مكان لآخر شاعرا باكتسابي أرضًا جديدة كلما وطأت أقدامي مكانا لا أعرفه، وفجأة صرخت واختفت. لاحقتها فاكتشفت نهرا صغيرا انكببت عليه لأروى عطشى الذي دام فترة طويلة، بينما كانت تشير إليه لكى أخبرها باسمه. عندما يئست من إجابتى، تطلعت إلي وفعلت مثلما أفعل. بعد أن شربت قالت: دي مية عذبة! تعال نقول للباقيين! وجرت إليهم تقاطع الدرس بصخب وتهليل منادية على سلامة وحده:

- تعال اشرب مش عطشان!

أخذت تكرر الجملة على سمعه حتى ملتها، والتفت إليها صاحبها، ثم تاه في نظرة معلمة وكأنه لا يسمع لعزة صوتا. لم تسألنى عزة بعد ذلك عن أسماء شيء مما حولنا. وصارت تتحسن بسرعة في تذكر الكلام. عندما أهملها سلامة، استمرت في السير. كانت تشرد أحيانا، او تبتسم بلا سبب، او تسأل فجأة عن اسم أي عضو من أعضاء جسمينا نحن الاثنين، دون إدراك واضح أنهما جسمان منفصلان، ولا تفرقة بين سؤال عن ذراع أو رقبة أو عضو تناسلي، كل الاسئلة نابعة من رغبة في التذكر لا يشوبها حكم مسبق يمكن أن يظهر في المظهر العادي عند السؤال عن هذا، ثم الخجل عند السؤال عن ذاك. وعدم التمييز هذا أزعجني. لكننى آثرت ألا أجيب إلا على قدر السؤال دون محاولة لايقاظ معلومة لم تطلبها هي بعد. شربنا من الماء حتى ارتوينا، ثم نمنا فوق الشجرة المحازية للنهر، لتعاود السؤال: - نجوم.

- نجوم ! صح ! نو جووم.

لم تسألني عن القمر. غاصت بعيونها فيه حتى نامت. ولذت بحضنها من الليالي الماضية. الآن لست وحيدا. قلت لنفسي. ثم سرعان ما تذكرت العهد: المهم الخطة تنجح للنهاية. وهكذا اصطنعت النوم عندما ناداها سلامة في عمق الليل بصوت خفيض ليقول لها:

- غضب عنى. آسف. حاسس بحاجة، وانت بعيد مش مركز. وحشتك؟

- صح! وحش تي نى !

وأنا أجلس القرفصاء، وأفرح؟! والمفترض أن أسعد حتى السكر لأنها أشربته من الماء، ولأنهما بدأ حياتهما كبشر من لحم ودم بأن بالا على نفسيهما ثم ضحكا، ثم نزلا ليغتسلا في النهر، حيث بقيا مدة طويلة جدا! ويضحكان. عندئذ عرفت أنهما سوف يعيدان من جديد كل أشكال العلاقات التي مرت بين الرجل والمرأة على أرض البشر، وأن التصفيات أثمرت عن نتائجها عندما وقفا يطلبان من غارب إما أن يطعمهما أو يزوجهما. حدث ذلك بعد أن اكتشفا معا، بينما صرت أنا مراقبا عن بعد، جسراً يعبر إلى الضفة الاخرى من الحديقة. كانت تظهر ثمار وأشجار على مرمى البصر. بعد تداول هامس بينهما، أقنعته عزة أن يأتيا إلي، ثم يشيران إلى المكان الواقع في الجهة الأخرى من الجسر فقلت:

- الغابة

- الغابا؟ نظرا إلى بعضهما في تساؤل. ال غا با..

- فيها طعام، أكل وشرب. مافيهاش جوع ولا عطش زي هنا. وزيادة على كده فيها شجر زي هنا، وفيه جسر ينقلنا كلنا سوا،

أخذا يفكران في صمت، أكملت:

- ولو شعرتو بالذنب ابقوا ارجعوا بالجسر تاني لغاية هنا!

تعانقا وذهبا لإبلاغ المعلم بقرارهما. لكنه رفض. وسألهما عن مكاني. لكنهما أبيا أن يخبراه. وعندما لم يفعلا، أمر رسوله المؤمن سلوى أن يذهب لنصحى عند الشجرة الملعونة قرب نهر الحياة الجاري. وأنها ستجدني مرشوقا في قلب الشجرة. عندئذ ثار الزوجان الشبان لمعرفة المعلم بأمر النهر دون أن يخبر عنه الجميع، واتهموه بالشرب منه وتحريمه عليهم. لأنه يريد أن يحيا للأبد ويميتهم هم من العطش. فهددهم المعلم ببطشه، وبكونه يعلم ما لا يعلمون. وأمر شرطي الأفكار فردوس أن تتحفظ عليهما كفكرتين شردتا ويجب التركيز معهما حتى حين.

عندئذ فكرت بروح الدعابة، أنه قد يكون أرسل إلى سلوى حتى يستأثر بفردوس، حبيبته السابقة التي يساويها الآن بالباقين، وكأن ذاكرته القديمة أيضا بدأت تنضح عليه بينما يقاومها.

وجاء دور سلوى. ربما لأن ساعتها كان غارب – القوة المحركة العليا – قد اهتزت في عيون مريديها. وجدت سلوى تقترب من

الشجرة بأثمالها الرقيقة المهلهلة كأنها ملكة على الفقراء، في مشية مستهترة بطيئة، ونظرة باردة، تتقدم نحوى. كان صدرها العاري إلا من شرائط من القماش بلون الأرض، وابتسامتها المحايدة مستسلمة تماما. طرحتها على الطين، ودسست رأسي بين فخذيها حتى انتفضت سلوى وازداد ارتعاشها حمى، عندما شبعت، صرخت صرخة مشروخة، وماتت. ولذهولي لم أعرف ماذا أفعل الآن. فررت عدوًا حتى أخل اللهاث بانتظام تنفسي، وأرهقت عضلاتي. نعم، اكتشفت لي عضلات ساعتها، أنا الهزيل قبيح الوجه والهيئة. تواريت فزعا في بطن شجرة جوفاء، ونمت. فكنت هكذا مرشوقا بالشجرة مثلما تنبأ غارب.

(4)
"هل التفاصيل مهمة؟"

جملة طرأت على رأسي بينما أدون ما حدث. أحيانا تطرق أختى الصغيرة باب حجرتي. أصبحت أميز طرقاتها الضعيفة الملحة، فأفتح لها دون بقية أهل البيت. حتى أصبحوا يبعثون إلي بالطعام من خلالها، وأيضا بجمل العتاب والحنان والتهديد.. أن آكل معهم، أن أعاود الذهاب الى المدرسة، أن أجيب على الباب عندما يكونون جميعا بالخارج.. إلخ.. كل شيء يتحد مع الاخر في حلقة واحدة: أن أخرج من الحجرة.

لا أدرى منذ متى اكتشفوا أن الحجرة صارت تنافسهم اقتناؤهم لي. ولماذا كل هذه الحيل الساذجة لإخراجي منها. لماذا لا يرغبون هم في أن يدخلوها. ألها سطوة لدرجة تجعلهم تحت رحمتها لو كانت المعركة بينهم وبينها على أرضها هي؟ ربما المعركة ليست بينهم وبين الحجرة، فلا أظن أنهم بالنبوغ الكافي ليفكوا رموز لغة المكان. ربما يكون صراعا بين مكانين. صراع بين أرضين تنفصلان

وتتصلان في الوقت نفسه بباب ملك لإحداهما: باب الحجرة. يبدو أن أهلي من السذاجة بحيث استغلهم المكان ليعبر عن خلافاته العائلية! او أنني صرت الآن أعزلا لدرجة صار كلام غارب يخرج عن لساني، بما أنه كان يتحدث عن عالم الجماد والنبات من حيث استقلاله عن الانسان، روح الجماد، أشياء ليست للتداول.

توقفت عن الكتابة هروبا من مواجهة التفاصيل، أو ربما لأن الصمت طاقة يجب التدرب على احترامها، كما يقول غارب. ربما أيضا لأنني لم أعد أصدق ما أحكيه.. أنا الآن في حجرتي، بين أفراد أسرتي، ما الذي لا ينبئني بأن ما حدث كان حلما؟ (قال غارب احلموا) وحتى إن لم يكن حلمًا، فهل يصدق أحد غيري أنه ليس حلما؟ عندما أفكر في أنني أدون ما حدث، أفكر بشكل لا إرادي فيمن سيقرأ، هل يصدق؟ تتغير الأماكن كلما مر عليها الزمن. ربما عندما أكون انتهيت من كتابة هذا التاريخ يكون المكان الواقعي الذي حدث فيه قد اندثر، وبنى فوقه واقع آخر، تاريخ آخر. كيف يمكنني ساعتها مثلا أن أقنع أختي الصغيرة، التي أحكي لها ما حدث كأنه وهم، مجرد حواديت صالحة لأن تجعلها تنام مبكرا، أو أن تصاب بأرق مثلي، أن اقنعها أن هذه الحواديت قد حدثت، وإن ذهبت بها إلى مكان الأحداث، ستكون الغابة قد تحولت إلى عمران، واختفت ظاهرة الموالد، .. لن يمكنني ساعتها أن أقحم على ذهنها واقعا لا يخصها. واقع صار واقعي وحدي، اعتقادي وحدي، وستراه هي مجرد أساطير.. وتفعل بي ما فعلت أنا بغارب.

لهذا يا أستاذ أنا ، عليك أن تجابه هذا الواقع الآن، بتفاصيله التى تهرب منها، لأنه لن تكون هناك فرصة أخرى في المستقبل لتدوين الأشياء كما حدثت بالفعل. سينمحى المكان ناثرا وقائعه مع ذرات الهواء، ولن تسعفك الذاكرة بعد فترة، إلا بحكايات ملفقة لسد ثغرات شيخوختها. ثم إنك مؤرخ الآن، تذكر ذلك، وليس عليك أن تختار أحداثا من دون غيرها، أو تحدد بأحكامك، ما هو "جدير" بالكتابة وما هو لا يصل إلى هذه الدرجة. أنت مؤرخ، ولست مريضا نفسيا تقاوم عقدته بالتنويم المغناطيسي.

(5)

كشيطان، نجحت في أن أجعلهم يشربون من الماء المحرم على أتباع غارب، وأن يأكلوا من شدة الجوع أوراق الشجرة المحرمة التي نمنا جميعا بين أغصانها ككتلة عصاة في مواجهته. ظل وحيدا، يستمر في تمارين التأمل والاختلاء، ويواصل السير حتى تهالكتا قدماه، فيغمض عينيه ويبدأ التركيز. كان الجميع يلح على عبور الجسر إلى الجهة الأخرى، حيث يتراءى على مرمى البصر شجر مثمر، وأرض طينية سمراء. ما إن يظهر غارب، حتى يبدأ الجميع في إلقاء الصراخ والسباب عليه، كأنها صلاتهم الجديدة، ابتهال من نوع آخر، صلاة للطعام، أكثر حميمية لبشر من دم ولحم منها إلى ملائكة. وكأن موعد هذه الصلاة ما زال يحدده غارب، بما أنها لا تبدأ إلا عند حضوره، لكنني أصبحت أنا الذي يؤم المصلين. لكن غارب سرعان ما يختفي، لتحل محل الصرخات تأوهات مكتومة لساجين ما زالوا ينتظرون أمر غارب حتى يأذن لهم بالمرور إلى الأرض عبورا بالجسر. هكذا احتفظ صديقي بألوهيته، رغم أن

الجميع أحبوني لأخلاصي ورغبتي في إطعامهم. عندما توصلت إلى هذه الفكرة حنقت عليه، وصحت فيهم أن ماذا تنتظرون، وتقدمتهم صارخا إلى الطعام ! إلى الحياة ! بعيون يخرج منها الشرر، فبدأوا يرددون هتافاتي، وحملوني على أكتافهم مثلما يحمل قادة الثوار في الجامعة إلى مظاهرة تسعى إلى قلب الحكم. والغريب أن المنظر من فوق اكتاف الاخرين يجعل المرء أكثر تحمسا لقضيته، لأنه يبدو ساميا مرتفعا فوق هامات البشر كافة، ولانني أعي جيدا أنني بشر أيضا، أعرف أن الوهيتي تكمن في حنقي على الإله القديم، واستمرار صوتي صارخا بأي كلام بنبرة متقدة حارقة. وفي هذا أنا أتفوق على إبليس، لأنه لا يشترك معي إلا في السعي لامتلاك حب الجماهير. ربما كان مثلي يشعر بالملل.

لكن بما أنني لا أملك طاقته كمخلوق من نار، وجدت نفسي بعد أن رفعوني فوق رؤوسهم أشفق على غارب بدلا من أن أشمت فيه. وعندما اعترض الموكب طالبا الحديث، وجدتني بدلا من أن أصرخ في وجهه وأشجب اعتراضه للموكب، أنزل إلى قامته لنتحدث وجها لوجه. في الحقيقة كنت قد وصلت إلى أنهم يؤلهونني على بطونهم التي في داخلهم، في العمق، أما هو فله فقط المظاهر، الخرق الرثة، الشعور المشعثة، الوجوه الشاحبة، وهي أشياء تعاف نفس الواحد أن تتأله عليها. أمرتهم بالجلوس إلى أن نتحدث أنا وزميلي. تركناهم ومشينا. وعندما استمر صمته لفترة طويلة بينما نمشي مما آلم

قدمي قررت أن أبدأ الحوار، ربما لنتسلى قليلا حتى لا يزداد الألم:

- "سيجارة؟"

أشار برأسه رافضا فوضعت العلبة في جيب قميصي بعد أن أخذت سيجارة وأشعلتها، ثم رميت الكبريت في النهر. لم ينتبه أي منا إلى اشتعال النهر بأكمله من أثر إلقاء الكبريت، رأينا النهر، لكن بنظرة معتادة، كأنه كان مشتعلا منذ الأزل، وكأننا اعتدنا أن نرى في الأنهار نارا وليس ماء، أو ربما، وهذا هو الأرجح، أننا كنا نعلم –دون أن ندرك ذلك- أن هذا النهر قابل للاشتعال. نظرة غارب للنهر كانت تقول أنه رأى نفس المشهد من قبل، رأته روحه قبل أن يأتي وبدى عليه الأسى كأنه يستشرف ألما قادما، كانت شفرة حريق النهر مفتاحا له. أما أنا فقد نظرت إلى النهر باسما، وكدت أضحك من الألم، يبدو أنني صدقت أنا أيضا، ولفترة، أنني شيطان فعلا، وعندما نظرت إلى النار ونظرت إلى نفسي، لم ار في أي شيء شبيه بها، فتذكرت أنني إنسان، ضحكت في نفسي ساخرا منها، منتظرا لمصيري في النار كما قالت الكتب السماوية. وشعرت أن علي أن أفعل شيئا لهؤلاء المساكين قبل أن يلقوا غارب في النار، فقررت أن أحاول إقناعه أن من حقهم أن ينتقلوا إلى الضفة الأخرى، فكرت أن أقنعه بطريقته، فبما أنه يستلهم الكتب السماوية فلم لا أخبره أنه لولا نزول آدم وحواء إلى الأرض لما كنا ولدنا وعشنا وصرنا أصدقاء يا غارب، وعليك أن تترك التاريخ البشري ليأخذ مجراه، يجب أن

يرحلوا وأن يعمروا الارض.

. لستم آدم وحواء. (آجابني دون أن أتكلم. ثم نظر إلى بعطف وأكمل) ثم إنك لست شيطانا يا أستاذ. أنت نسيت صداقتنا؟ تفتكر هاحب أسيبك تعيش انت وسلامة في مكان واحد؟ وعزة هاتعمل إيه بينكم؟ مش كفاية اللي عملته في سلوى؟

تغيرت الخلفية وراءنا، كنا في الشارع خارجين من المدرسة. استمرت أقدامنا تمشى "محلك سر" والأماكن تأتي من أمامنا ثم تتراجع إلى أن تصبح خلفية لنا، ثم تختفى لتحل أماكن أخرى محلها وعندما وصلنا إلى المولد أجبته:

- سلوى ماتت من الجوع، وهم محتاجين ياكلوا، أوعدك إنهم أول ما يعدو من هنا هارمي نفسي في النهر.

- سلوى ماتت مـ الشبع. اللي كان نفسها فيه، حصل، مابقتش عايزة حاجة من الدنيا، علشان كدة لازم تفضلوا جعانين. .

- يعني انت عارف إننا في الدنيا؟! هايل! طيب ما هي الدنيا دى زي اللى جنبها!

نظر إليّ وابتسم وجلس إلى شجرة كانت في الوقت نفسه وتدًا من أوتاد خيمتنا أمام البحر، وقال:

-"لا"

ازداد غضبي وثورتي وبعد أن كنت أستميله وأستحلفه صرت أزعق فيه وأصيح ملوحا بيدي شاتما:

-" أنت فاكر نفسك إيه عشان تتحكم في الناس! مش من حقك

تقول مين مات ليه ونعمل ايه عشان مانموتش! ما كلنا هانموت يا أخى، يحصل إيه لو أكلنا على الأقل قبل ما نموت؟ مانت كمان هاتموت! أنا غلطان إنى واخدك على قد عقلك. لازم تعرف إن مش من حقك تتحكم في مصير حد فينا، يا أستاذ".

كانت الخلفيات تتلاحق في فوضى وصورتنا تتحرك بينها كأنها في دوامة. وقف غارب فوجدت أننا نقف على صخرة تتدفق منها نار النهر، نظر إليّ غارب بتأنيب كأنني أنا الذي حكمت عليه بأن ينزل في الماء.

نظرت خلفي فوجدت أصدقائي مستعدين للرحيل، والجسر أمامنا ضيق، كنا نتلاصق على هيئة طابور لكي نعبره، والنار تلسع أقدامنا، كنت أنظر إلى النهر وأفكر أنها قد تكون إحدى خدع غارب، وأنه سوف يعود مثلما كان يفعل كل مرة يغيب فيها، لكننى ما إن وضعت قدمي على الضفة الأخرى، بعد أن اطمأننت على سلامة الأصدقاء، تذكرت أننى كنت فعلا شيطان الأرض التي تركناها، وأن غارب ربما يكون مثلهم قد فقد ذاكرته الماضية، وأننى عندما قلت له أنه سيموت حكمت عليه بالموت، فلم يعد، من وجهة نظره، إلهاً، وعندما قلت له "يا أستاذ" اعتقد أنه أنا فرمى نفسه في النار بصفته شيطان الجنة.

وعندما وضعت القدم الأخرى في الأرض، قلت لنفسي ربما أكون أنا الذي وقعت في النهر، أقصد قد حدث إحلال وإبدال بين روحينا

كما يسميها غارب، أو أدوارنا في الفيلم كما عهدت من قبل أن أسميها أنا، ربما أنا الآن غارب، بما أن "الاستاذ" هو الذي مات. مات؟ يعنى غارب مش جاي! يعنى لازم أحل محله الآن، بما أن اسمى قد مات معه، وبقى اسمه هو معي. أنا الآن المسئول إذًا عن هؤلاء الإخوة. وإذا كان غارب صبرهم على الأكل والشرب عن طريق استعارة القصص المكتوبة في الكتب المقدسة لأنه اعتقد أننا في الجنة، سأستعين أنا بما عرفته في كتب التاريخ بما أننا على الأرض الآن، وبما أني مؤرخ. يا إلهي! هذا مرعب حقاً، ولا أظنني أهلا له!.

(6)

منذ أن وصلنا، كنت في كل يوم مساءً أصغر وأعود تلميذا في المدرسة أذاكر كتب التاريخ، كان جدي القديم يأكل الثمار ثم...

....

....

ثم صنعنا من أخشاب الشجر بيوتا وآلات حادة للصيد، ثم صنعنا الآلات الحادة من الحجر، وبعد فترة اكتشفنا أن البذور التي ألقيناها في الأرض دون قصد بعد أكل الثمار قد بدأت تنبت زرعا.. إلخ.

وعندما يأتي الصباح أعود إلى صورتي المألوفة وأخطط لما سوف نكتشفه في اليوم التالي، حتى اكتشف سلامة حيلتي ذات يوم — وكان هذا هو أول اكتشاف من إنسان للإنسان الآخر.

صرخ في وجهي مثلما صرخت في وجه غارب، فابتسمت الابتسامة نفسها واعتبرت ذلك علامة على الإذن لي باعتزال اللعبة وأن أستريح أخيرا وأترك لسلامة أن يديرها هو.

بدأ عصر جديد إذًا، لكن جذوره كانت تمتد من الأزل، احتال الإنسان على الطبيعة الحرة وصنع منها آلات جامدة، احتال على الحيوان وأكله معتمدا على البقاء للأذكى، ثم جاء الوقت الذي يشعر فيه الإنسان بالأمان، وقت الزراعة، وفيه سيتمرد طبعا على من فكر ودبر له، وسيفكر ويدبر حياته بنفسه، متمردا في الوقت نفسه على الزراعة المملة التي تستلزم البقاء والصبر زمنا طويلا حتى الحصاد. ويبدأ الإنسان يحتال على البشر في شكل شيء يشبه الحروب بيني وبين سلامة في محاولة لاحتلال المكان، الطعام، النساء، انتهت بسجني في قفص من الخشب كقرد مستأنس، أو كأثر متحفي، برغم أنني أخوه الإنسان.

لم أجد أمامي إلا ردى فعل وعليَّ أن أختار بينهما: رد فعل سريع مؤثر على الحاضر، وآخر باطني يرجأ أثره إلى المستقبل. وكان لرد الفعل الأول ثلاثة أشكال للتعبير عنه:

1 - أن أروح وأجيء في القفص ثائرا مجعجعا حتى تنفث ثورتي فأخلد إلى النوم بعد أن خارت قواي.

ونتيجة هذا الشكل من التعبير أن يتخذني الباقون قدوة ويعتبروني زعيمًا ضحى بحياته في سبيل تحريرهم من سلطة سلامة، أو أن يخافوا من أن يعاقبوا بمثل عقابي فيعيشون الظروف القاسية نفسها التي جعلتني أعاني إلى حد الصراخ والثورة.

2- أن أنافق سلامة وأعتذر وأمتثل له أمام الجمع حتى يعفو

عني. وفي هذه الحالة سأكون تحت رحمته، إما أن يعفو أو يزيد سخريته وإهانته لي. وفي الحالتين ستكون النتيجة إما أن يحبط الآخرون من تصرفي ويزيد أمتثالهم لسلامة، مع رجائه أن يزيد من عقوبتي (كخائن لقضيتي قبل أي شيء)، أو أن يتعلموا النفاق على يدي.

3- أن أفكر في خطة لإخراجي من القفص وأضع فيه سلامة مكاني. وهنا سيعتبرني الباقون طاغية جديدا، ويمتثلون لي بمنطق "مات الملك، عاش الملك"، ثم يقتادون بانقلابي على سلامة وينقلبون بدورهم علي، أو يحتفلون بي كمخلص من الطاغية وبطل، أو إله.

من هذه المجموعة فكرت أن أغامر باختيار رقم (3).

أما رد الفعل الآخر الباطني الذي يؤتي ثماره في المستقبل، لآخرين، وليس لتخليص نفسي، فليس له إلا شكل واحد للتعبير عنه: أن أكتب التاريخ للقادمين بعدنا. وهنا تكمن مسئولية تكوين لا وعيهم، وفيه أيضا اختياران:

1- أن أنافق سلامة بتزوير ما يحدث في عهده لصالح سمعته المستقبلية لكي آمن شره، وما سيصل إلى الأجيال الدارسة للتاريخ هو شعوري أثناء الكتابة: الجبن والخذلان، وخوف من أي كبير لدرجة النفاق فيفعلون مثلي.

2- أن أكون مؤرخا منحازا إلى الشرفاء الثائرين فأكتب عن

طغيانه، وأشفى غليلي منه. وهناك سيراني القادمون كبطل يحارب بالكلمة، ويقدرون تصرفي، ويطلقون صراح اسمي على ألسنتهم، حتى يملأ ذبذبات الهواء. ويعرفون أنهم سلالة أول عهد للبشرية عرف السجن، والقهر والسلطة المطلقة فيتحصنون ضده بالنزاهة والجرأة والتزام الصدق.

ومن هذا الشكل للتعبير اخترت رقم (2)

أجبت هكذا على أسئلة الامتحان بسرعة ودون أن أذاكر، يدفعني حنقي على سلامة المتأصل من أيام الدراسة، ورغبتي في الخروج من القفص رافعا الرأس، وليس معتذرا ضعيف الحيلة.

تخطينا إذًا مرحلة ما قبل التاريخ، والتي كان فيها الإنسان لا يختلف كثيرا عن الحيوان في مطالبه الطبيعية من أكل وشرب وتناسل. ومررنا بالمرحلة الانتقالية بينها وبين عصر الكتابة، وهي المرحلة التي عرف فيها الإنسان الملكية (الأرض النساء التدجين) والصراع عليها وتسيُّدها، أي عرف الإنسان اللذة في السلطة، واعتبرها أساسية كلذة الأكل والجنس والإخراج. ثم دخلنا في مرحلة الكتابة، بما أني صرت مؤرخا، وهي المرحلة التي يستخدم فيها الإنسان سلاح عقله قبل يديه، لكي يستغفل غريمه، بدلا من كونه سالفا يقتله، وأن يكون هناك نواة أحكام ومحاكم وسجون (القفص الخشبي) وعقاب، يكون العقاب معنويا أكثر منه جسديا. نستطيع أن نقول إن الحضارة بدأت تتشكل، وإن سلامة بخسته

ونظرياته السالف عرضها في الفصول السابقة للرواية، كان أقدرنا على تمثيل دور الشخص المتحضر.

لكن العصور السالفة بقيت في لا وعينا تخرج في حالات الغضب بعض أصدائها، وهذا طبعا ليس من صفات سلامة، البارد المتخصص في إنتاج الحيل، لكننى كنت في شخصي من يمثل المرحلة الوسطى بين ما قبل التاريخ والتاريخ، وكان استفزازه المقصود لي بمثابة القشرة الضعيفة التي يخرج منها بركان غضبي. فأتصرف كما يشير البند الثالث من رد الفعل الأول. ولماذا لا أكون متوترا كأي مرحلة انتقالية، بما أنني أقدم خبرة من سلامة بإدارة هذه الأرض، وهو الشاب الذى يثور علي ويريد تغيير نظامي، وبما أنني أكتب بادئا عصر التاريخ، ثم أثناء غضبى أمزق ما أكتبه، وأزوم محاولا كسر القفص وممتلئا برغبتي في قتل سلامة ونهشه بأنيابي.

أما عن الأزياء التي يمكنها أن تمثلنى في هذه المرحلة من الفيلم يمكن أن تمثل "إنسان الغابة" أمام سلامة "الإنسان بشكله المتطور بعد أن خاض كل مراحل نظرية التطور عند داروين، وصار خبيرا بصورة بديهية بنقاط ضعفها ومميزاتها، بما أن ذاكرته اللاواعية تزال تحمل بقايا ذكريات بنى جنسه في تلك الحقب المتتالية. من هذا المنطلق يجب أن نفهم ما حدث مع الساحرة المستديرة. والتي جعلت الجميع يشعر بالندم والذنب، والتطلع بحنين وحسرة إلى

حديقة الأب معتقدين أن غارب ما زال "يستطيع" أن يعيش فيها برغم الوحدة والجدب والظمأ، وينتظرون أن يأتي ليخلصهم بعد أن خارت قواهم وجبنوا خوفا من النار أثناء عبور الجسر للمرة الأولى، مما جعلهم يهابون أن يعاودوا الكرّة إياباً من جديد إلى هناك. صاروا يدعونه لأن يأتي، ويطلبون منه أن يساعدهم - بقدراته الخارقة التي سمحت له أن يستمر في العيش هناك ثابتا على مبدئه بلا أكل أو شرب - في تحمل حياتهم هنا إلى أن يأتي ويصحبهم إليه من جديد. وبدأوا، ليستدروا عطفه، أن يعودوا إلى الصيام وتمارين المشى والتأمل والجلد والصبر على حرمانات كثيرة. وهم يبكون، ويعانون، لا يعرفون أن غارب قد مات، ولا أستطيع – بسبب الندم أولا، ثم بسبب سعادتي متشفيا فيهم لمعاناتهم بعد أن قبلوا سلامة بعدي- أن أخبرهم بموته، الذي كنت وحدي الشاهد الوحيد عليه.

كنت الوحيد الذي يحزن على غارب ولا يطلب منه شيئاً، والذي يضحك في كثرة الألم والتناقض الذي يراه ويعيشه، بين رغبته في لعن نفسه لأنه رغب يوما في إنقاذ هؤلاء البشر الحمقى، دافعا غارب قربانا لحياتهم، وفاقدا أعز أصدقائه لأجل هؤلاء الذين يحبسونه وينتقمون منه الآن لأنه أخرجهم من هناك وأتى بهم إلى هنا. لقد فقدت كل شيء، ولم يعد أمامي الآن حقا إلا السخرية من كل شيء، من نفسى ومنهم على حد سواء.

الفصل الرابع

الساحرة المستديرة

(1)

لم أقصد أن أشارك في الأحداث، مثلما لم أقصد أن أكون كاتبا لها. يبدو أن هناك علاقة بين المشاركة في الأحداث والكتابة. لا أستطيع بعد كل هذا أن أكون مؤرخا، أو أن أحاول الحفاظ على شرف مهنة محايدة أو متواطئة كهذه، مثلما لم أستطع فيما قبل أن أمتنع تماما عن أن أكون عنصرا فعالا في الأحداث – ولو رغم أنفي.

وكلما فكرت في أختي الصغيرة التي تجرى نحوى في بداية كل عام دراسي لكي أجلد لها الكراريس، ألصق التكت عليها، تستحلفنى أن أكتب لها اسمها فوق التيكت "بخط الكبار"، أقول لنفسي، بينما أنظر إلى الذين تمسكوا بغارب، ثم بسلامة، إن هؤلاء البشر محتاجون أيضاً لأن يصنعوا لأنفسهم كبيرا يستطيع لصق أسمائهم على جبينهم بخطه هو. وأن الخط الجميل هنا صار هو نفسه الخط المتقنة كتابته بالنسبة لهؤلاء الصغار، مما ساوى الجميل بالمضبوط، والجميل بما يفعله الكبار، الذي دائما أكثر "ضبطا" بالبديهة من خط الصغار. وأن زهو الكبار بما يخطونه

بالمقارنة بالصغار زهو ذو طبيعة غير متكافئة، ليس لأن هؤلاء صغار والآخرين كبار، فهذا أمر مشكوك فيه، لكن لأن ما يجعل الخط جميلا بالنسبة للكبار، ليس هو نفسه ما يراه الصغار جميلاً في خطوط الكبار.

أختى الصغيرة مثلا ترى أن خطى جميل لأنى كبير، وأنا في لحظة كتابة اسمها أرى أن خطى جميل لأنه خطى. لكننى في الوقت نفسه لم أفكر في أن خطها هي أيضا قد يكون جميلا لأنه خطها، بل وفكرت أنه رديء لأنها صغيرة. لا أحد يرى خطوط الآخرين لأنها خطوط الآخرين، حتى أختى الصغيرة لم تر خطى. وما زالت الشيطانة الصغيرة تغويني برغم ذلك على الزهو بكوني كبير، بينما أزداد كل يوم كرها لخطى الذي لن تحتاجه هي بعد سنة أو سنتين ليرسم لها حروف اسمها. أعتقد أنى متورط في عملية الكتابة أكثر منها، بما أن انجذابها لخطى انجذاب وقتي بالضرورة، واتكائي على جمال خطى في نظرها يجعل شعوري بعجز خطى عن التأثير مرهون بنظرتها إليه. هكذا ستبقى قدرتي على الزهو والشعور بذاتي مرهونة باعتقاد تلك الصغيرة فيهما. علاقة غريبة لم أكن أعتقد أنها مهمة إلى هذا الحد. ولم أكن أتخيل أن إدمان الكتابة سيضطرها إلى ألا تكون محايدة، وأنا بالتبعية، وسأضطر لأن أفعل شيئا بطوليا أشيد به عندما أعود (كنت قد خططت للعودة) لتأريخ الأحداث. بمعنى آخر، أغرتني الكتابة وأوقعتني أولا في فخ التأريخ،

ثم المشاركة في صناعة التاريخ نفسه، وكنت أتلاعب بتعزية نفسي بأنني لن أكذب عند الكتابة.

لكن الساحرة المستديرة ليست هي الكتابة، إنها كرة القدم. عندما جاءت أختى إلى حجرتي حاملة كراسات العام الجديد كان هناك شيء قد تغير في نظرتها، صارت أكثر ألفة ومودة فكرهت أن أنظر إليها طويلا. قالت:

-- قل عروستي.

- عروستي.

- مدورة.

- عروستي.

- العين على شكلها.

- عروستي.

- والأرض والبلى وجمرة النار.

- الكورة؟

- لأ، الساحرة المستديرة. المعلق في التليفزيون قال عليها كده.

- هو فيه ساحرة مستديرة؟ الساحرة يا طيبة يا شريرة. قلتُ بود فأجابتني بنصاحة:

- هو احنا لازم نوصفها على حسب أخلاقها، هي حرة في أخلاقها، وبعدين ايش عرفك ان الشر شر والخير خير؟ خلينا نوصفها بحاجة متأكدين منها.

ليه؟ الشر هو الحاجة الوحشة زي القتل والضرب والسرقة..

والخير هو ال..

- يعني لما ماما تضربني ده شر؟

- علشان مصلحتك يبقى خير.

-بس لو أنا ضربتها علشان مصلحتها هاتقول لي وانت إيش عرفك مصلحتي فين، إنت صغيرة. يعنى الصغيرين شر والكبار خير يعني؟ بكرة أكبر وابقى أكبر منك كمان، ومش هاخليهم يسموها كرة القدم، هايسموها من هنا ورايح الساحرة المستديرة، وأي حاجة مدورة هاتبقى ساحرة مستديرة، انت مثلا هايبقى اسمك الساحر الطويل والرفيع، وأنا هايبقى اسمي الساحرة اللى راكبة الكراس، علشان ما عاييش مقشة، ماما بقى هي الساحرة الشريرة علشان المقشة ما بتفارقش إيدها.

(2)

بوعى منى هذه المرة، شاركت في لعبة جديدة. جعلنى ذلك أدرك أننى قاربت على الانتهاء من دوري القديم كمؤرخ، وإن كنت قد أخللت به بعض الشيء، إلى دور حقيقي: ند في لعبة يتشارك فيها اثنان واسمها عروستي: أي متعلقة بالحياة الاجتماعية الأكثر نووية وهي الأسرة بل وبجزئ حيوي منها أسمع العروسة. لعبة تعتمد على راسل ومرسل إليه، بينهما رسالة لا يقولها المرسل بل يعبر عن صفاتها ذلك لكي يكتشف المرسل إليه نفس الرسالة من خلال الصفات، لكي يعمل عقله أثناء الانصات مثلما يعمل المرسل عقله أثناء الارسال. ليس ما يجب توصيله هو صفات الشيء، بل اسم الشيء الذي يدور في ذهن المرسل أثناء إرسال الصفات.. لعبة جديدة، أكثر تعقيدا وأقل اجتماعية مما يتناسب مع تطور الخبرات أثناء تراكمها فوق ميراث مهد أرض الألعاب لها. لكن يجب ألا أبدأ في الحديث عنها قبل الانتهاء من تأريخ اللعبة القديمة.

هنا أفكر في الترك. في التخلي عن اللحية والشارب الأبيضين.

لكن الترك لا يعني التخلي كلية. أختى تتركني، ولا يعني ذلك أنها لن ترغب في رؤيتي مرة أخرى، لكنها ترغب الآن في متابعة المباراة.

أريد أن أتحدث عن الترك فأتحدث عن أختي. وكان من الأولى أن أتحدث عن غارب. لا أظنه كان يرغب في مغادرتي عندما سقط في النهر، لم يكن يريد أن يتخلى عني، لم يكن يتعمد تركي، بقدر ما كان يتعمد استكمال مسيرة زهده إلى التخلى عن جسمه. وأن أحل محله. كان يمنحنى وجوده بينما يتركني. وهذا لا يعنى أنه يتخلى عني. بل على العكس، إنه يجمع نفسه عليّ.

يبدو لي أن الترك هو اضطرارك للتخلي عن أشياء تخصك، أو تعتقد أنها تخصك. كأن يموت لك صديق فتضطر أن ترحل بعد حضور جنازته. لكنك تبقيه داخلك. يبقى حيا من خلالك. يحتل حجرة في عقلك، بألا تنساه. مثلما تركت عزة لسلامة وسلوى للحديقة. آما فردوس فقد تخليت عنها عندما حاولت أن أنجو بنفسى من النار التي أشعلتها للثأر من سلامة الذي حبسني.

وهنا نعود إلى الساحرة المستديرة التي ألهمتنى بها أختى في شكل من أشكال التداخل الزمني، بل واللازمنى الخاصين بالأرواح. فزحزحت جسمي داخل القفص حتى اقتربت من شجرة جوز الهند قرب النهر. والتقطت ثمرة وأشعلتها بمائة ثم فككت بالنار قيدي وألقيتها بعدئذ على سلامة لكي تحرقه وبذلك بدأت لعبة كرة القدم بعكس ما كان سلامة يشيع بيننا قبل معاكسة البنات. كان

يقول إن لعبة الكرة تقوم أساسا على الرغبة في الاستحواز: "الشكل الوحيد اللي ممكن تمسكه تحس إن إيدك مليانه" قال متفحصا استدارات عزة.

لكنني اكتشفت بعد التجربة أن هذه اللعبة تقوم على الرغبة في درء الخطر بأنانية تضاهي أنانية الامتلاك. قوامها أنه طالما الكرة معي يجب أن أتخلص منها قبل أن تحرقني. لم يستطع سلامة أن يتفادى لياقتي وبعد سجال من النظرات وصد ورد الكرة بقيت عنده فاحترق.

عندئذ أمسكت فردوس بعزة مستحوزة على كل استداراتها. حاولت أن أنتزع عزة بكل إرادتي، لكن فردوس كانت ممسكة بها بشراسة غريبة. وبقيتا لمدة أيام لا يحدثانني. يستيقظان فيصليا للجهة الأخرى من النهر ماسكتين ثمرة جوز بين أيديهما كتمثيل للذنب الأول. ثم يبحثا عن طعام. وإذا ما فكرت عزة في أن تعطيني بعضه نهرتها فردوس فارتدعت. ذات يوم تنازعنا عزة أنا وفردوس حتى مزقناها إربا. فجريت هاربا من هول المشهد بينما أخذت فردوس تأكل المزق بآلية يتملكها الفزع.

(تيترات: كتابة على شاشة سوداء: "بقيت فردوس في الغابة حتى انطفأ الحريق وتحولت تدريجيا إلى إنسان غابة وبدأت الحيوانات تتوافد من جديد على المكان، أنجبت طفلا وتزوجته مثلما يحدث أحيانا في قانون الطبيعة الحيوانية. سكتت النار

عن النهر، واتصلت حديقة الأب بالغابة ونشأت سلالة جديدة من إنسان الغابة، بعدما ماتت فردوس ميتة طبيعية. ووضعت الجثة تحت الدراسة في حوزة متخصصين في الآثار والمومياوات." صورة التيترات إنسان أسود عارٍ مطلي بالرماد يتسلق جزع شجرة شديد الاخضرار إلى أن يصل للمنطقة التي تخرج منها الفروع، يدير رأسه في اتجاهات الفروع المتشعبة لا يدري يكمل الصعود على أيها. الخلفية بنية زرقاء وتصاحبها موسيقى أدغال).

المحتوى

إصدارات

سلسلة حروف

28- إسكندرية يوم واحد .... طارق هاشم

29- امرأة خائفة .... سلوى علوان

30- خيمةٌ.. لجنون الصحراء .... حسن شهاب الدين

31- هكذا.. تهيأتُ للحديث عنك .... أيمن الشحات

32- الجدار الأخير .... محمد على إبراهيم

33- حارس الصحرا الضرير .... أسامة البنا

34- حكاية العمر كله .... وائل سعيد

35- بقع زرقاء .... حاتم رضوان

36- جنب البيت .... رجب الصاوى

37- بنت بتملا الروح ألوان .... عصام مهران

38- مقاطع في حيز العابر .... يوسف ليمود

39- سداسية الوصول .... محمود أحمد

40- فواصل للوجع .... أيمن عبد المقصود

41- تشخيص على مسرح مكشوف .... محمد على عزب

42- السما سرحانه ف شعرها .... مراد ناجح عزيز

43- يا عيون النفط زمى .... كمال على مهدى

44- رجل الحواديت .... آمال عويضة

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقاً)
ت: 23904096 - 23952496

في هذه الرواية يستخدم المؤلف الضمني السارد المشارك ليدخل بنا لعالم الأحداث، فيشتبك مع الوجود من خلال شخصياته ليفتح أفقًا قد يكون مغايرًا للعالم في سرعة أحداثه، والسارد دائمًا يفترض علاقات مع الوجود من خلال طرحه بعض تأملاته الخاصة عن العالم وعن الوجود وعن الشخصيات، كما نجد في بعض الأحيان أن العلاقة بين الذكر والأنثى هي بؤرة التفاعل الوجودي، علاقة لا تسير على وتيرة واحدة.

جاء الحوار بالعامية المصرية، ولعبت الأفعال دورًا بارزا في هارموني الأحداث وحركتها، كما لعبت الألوان دورًا بارزًا في خدمة المعنى؛ فالأبيض والأسود يمثلان الصواب والخطأ كلونين متضادين، أما الألوان التي تنتج عن البحر والشمس والطبيعة تعبر عن حالة التنوع الوجودي، ومن المسائل الوجودية التي انشغل بها المؤلف الضمني إشكالية الحياة والموت.

ومن حركة سير الأحداث نجد أن الفضاء الزماني يلعب دور البطولة مع الشخصيات ما بين الماضي والحاضر والخوف من المستقبل، وذلك عكس الفضاء المكاني الذي كان حيزه ضيقا، ليجرد المؤلف الضمني الشخصيات من الدور الذي يلعبه المكان فيطلق تأملاته بلا حدود مكانية.





www.gocp.gov.eg

الثمن : جنيهان

اللوحة وتصميم الغلاف... د. خالد سرور